

الفصل الرابع

مارشال هول

١٦ سبتمبر ١٨٥٨ - ٢٣ فبراير ١٩٢٦



«إن عملي وعمل الممثل صنوان، غير أني لا أستعين بمنظر،
ولا بكلمات محضرة، ولا بأستار، وإنما أخلق من الحقائق والأحلام
في حياة بعض الناس جوًّا صالحًا، لأن هذه هي الحمامة»

مارشال هول

obeikandi.com

المحامى الموهوب

هذا رجل إنجليزي كأنه فرنسي، ليس فيه الدم البارد الذى يمتاز به العنصر السكسونى من بين العناصر، ناقض قومه، فأتعبهم وأتعبوه، ولكنهم أحبه... واختلف مع القضاة ومع الناس ومع مصلحته، فلم يفشل ولم تذهب ربحه، وتحالفت روعة منظره وثورة عاطفته وقدرته على الارتجال على أن تجعل منه أعجوبة فى الإنجليز.

ما أصدق قولهم إذ أطلقوا عليه أنه «لابورى إنجلترا» لما كان بين المحامين العظمين من أسباب التشابه.

كان «فرنان لابورى» فى فرنسا بطل قضايا «فايان» و «دريفوس» و «إميل زولا» التى شغلت الفكر العالمى فى خاتمة القرن الماضى وفتحة هذا القرن. فى إهابه كل خصائص الجنس الفرنسى، واللاتينى، من استجابة للمعاطف وقوة إنفعال وسرعة تعبير وقوة تصوير. وهى عروض لا تنفق فى أسواق الجزر المنعزلة فى غربى القارة... كأنما استقلت عنها لتتصرف فيها، وفى الدنيا.

لكن نبوغه الحارق، فى أمة تصدف عن كل ما هو استثنائى، وتطوى كشحاً، عما يروع ويبهر، جعل منه محامياً عالمياً، كما جعل من ذاته ومن خطوات حياته، حقائق جديدة بالتعجب.

وفى سنة ١٩٢٣ ظفر بالبراءة لمرجريت ف... بعد إقرارها بقتل شاب من «ذوات» مصر هو المرحوم ع... ف.. وحملت أسلاك البرق من كل أرجاء المعمورة تهايم الناس لمارشال هول ومنها تلك البرقية التى وجهها إليه باعثها على أنه «أكبر محام على وجه الأرض»... لقد كان ألمع نجوم المحاماة فى أعلى أمم الأرض حضارة. فلم يك بدعاً أن يقترن مجده بسؤدها وجلالها بجلاله.

بدأ حياته القضائية - كما قال لورد «بركنهد» - «رجلاً يحكم الغريب عنه لو رآه فى أى فترة من فترات حياته - حتى فى أحلك ساعاته - أنه مقدور له النجاح». حبته العناية الإلهية بسجية هى المحاماة فى صميمها، أعنى بها الشجاعة. واختصته بنظرة نافذة إلى الأعماق مكنته من فهم الطبيعة الإنسانية والتغلغل فى أغوارها، ونفس طبعها الفن بالجليل العالى من مزاياء. فكان رجل الساعة فى أندح القضايا خطراً. وثمة وجده مواطنوه كما قال «هنرى روبير» فى مربيته «لفرنان لابورى» «قوة من قوى الطبيعة، ومارداً فى الدفاع» بل كما قال: «لورد

بركنهد» عن «مارشال هول» فاجتمع الرأيان وتوافق المصوران كما تطابقت صورتان «ماردا بين الرجال، في مخبره وفي مظهره».

ويمكن هذه الشهرة الباهرة طول العمر، وعظم الأحداث وتنوعها، من يمن شخصية إلى يمن غير شخصية، ومن جروح في المحاماة إلى قروح في مجلس العموم، ومن محام يروع الناس ببوادر القوة التي يجارب بها في قضاياها، إلى محام أكبر روعة وهو يجارب بعد إذ حطمه السنون، قعيداً على كرسي تحيط به أسباب العلاج! أفرطت الصحافة في تمجيد، وأغرقت في التثريب عليه، حتى أوشك الدولاب القوي للرجل العبقري أن يتوقف.

ولما مسه القرع جاءته المحن تثرى، جميعاً، كأنها على ميعاد، فاجتمعت عليه مأس عائلية كأساطير «راسين» و «كورنى» و «شكسبير» وهجوم مدير من السلطة الرابعة وهي الصحافة، وخصومات مع السلطة الثالثة التي هي القضاء. وفقدان كرسيه في السلطة الثانية التي هي مجلس العموم. في ظروف خال فيها أعداؤه وأولياؤه أن هامته العالية، وقامته المتطاولة، ستنحنيان: أن كانتا لا تتحطمان، لكن ثغره كان يفتر عن بسمة مشرقة بالأمل، واثقة بالظفر، كما تنفرج السحب عن شمس السماء، وكانت ثقته بذاته تجتذب قلوب الأعداء والأصدقاء، على السواء، فكانت محنته أكبر أسباب محبته.

ولما خاصم القضاء خاصمه لحساب موكله وعلى حساب نفسه، فحمل وحده سخط العالم القضائي مضحياً كل شيء في سبيل المحاماة.

ولما يبيع له في «المملكة المتحدة» على أنه كبير محامى العصر لم تكن تلك البيعة لقاء مواهبه القانونية قدر ما كانت جزءاً ما فيه من فيوض الإنسانية.

كان جميلاً يحب الجمال، في الزهر، وفي الحللى، وفي لوحات الفن، ملئت حياته كأغلب الفنانين بالعوارض، وبالتناقض، وبالأساء، فلم تنطفئ جذوته، ولما حان حينه دعاه داعى الردى في إبان نظر الأخيرة من قضاياها، فمات مدججاً بسلاحه.



ولد السير «إدوارد مارشال هول» في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٨ لأب طبيب. كان أبوه محامياً، فورث من أبيه قريحة مستنيرة في الطب والعقارات أدت له أجل الخدمات وهو في أوج عمله في قضايا السموم، وورث من أمه جمالها فكان رائع المنظر حسن السمات، بائن الطول (ست أقدام وثلاث بوصات).

وتبدت عجائبه منذ حدثته، فهو يذهب إلى مدرسة قسيس فيهوى أخت القسيس، قبل أن يعرف الهوى! وهوى الأسلحة النارية، فتظل درايته بأسرارها عوناً له في قضاياها حتى يموت.

بدأت معرفته بالمحكمة يوم خطا إليها خطواته الأولى في الرابعة من عمره ليشهد مع أبيه قضية سم خطيرة ففتح قلبه منذ ذلك اليوم للوقوف إلى جوار المتهم.

اجتمع في تلك القضية أمران كانا ميدانا لمعاركه طول حياته وهما السم والجنون: فتاة عزمت ان تدس السم لزوجة طبيب تبغى الزواج منه فمزجت «الاستركنين» بمقادير من الشيكولاتة في محل معروف، كانت تبعث في طلبها فتسممها ثم تعيدها معتلة بعدم موافقتها حتى إذا اشتراها المشترون شاع أذاها في الناس فبعدت عنها الشبهة!

لكن سماها أودت بولد صغير فقدمت للمحاكمة ودانها المحلفون، فادعت الحمل حتى لا تعدم، ودعى لفحصها محلقات فيهن طبيب للكشف عليها منظاراً مكبراً فذهب ضابط فشرى له... منظاراً بحرياً...! معتزلاً بأنه أصغر ما وجد في السوق!.

ولما ثبت كذبها انفجرت باكية وانفجر المحلفات في مقاعدهن باكيات!! وخار ما كانت تحتفظ به في إبان المحاكمة من هدوه وغشيتها غاشية من الهذيان إنتهت بإيداعها مستشفى الأمراض العقلية.

وتجلت طبيعة «مارشال هول» كرجل كفاح في براعته في لعبة «الكركت» فصار زعيماً للفرق أينما حل، وفي الثامنة عشرة وظفه أبوه كاتباً في شركة. فمكث غير بعيد ثم عاد إلى مدرسته فلم يكدر يدرس سنوات حتى إنصرف عنها وراح يهيم في مدن العالم. فقضى نحو عام في الحى اللاتينى بباريس يدرس في مدرسة الدنيا، ويتجر في المجوهرات، يشتريها من باريس ويبيعها في لندن. أو يشتريها من لندن ويبيعها في باريس، واتخذها هواية غدت من بعد دراية، طالما أفاد منها في قضاياها.

وشد رحله إلى سفر بعيد... إلى أستراليا... وعاد عن طريق السويس وجبل طارق، ملآن الذهن بالمعارف، معمور الفؤاد بالتجارب.

ثم عمد إلى دراسة القانون بكمبريدج، فقاضى عامين وتخرج سنة ١٨٨٢ في الرابعة والعشرين ليبدأ فترة التمرين كمحام مترافع Barrister.

والمحامى المترافع، في هذه الأمة التي تعتصم بتقاليدها من أن تشرك العالم، كما تعتصم بأموال المحيط من الإختلاط بالأمم، لا يتصل بالموكلين. وإنما يتصل بهم المحامى غير المترافع Solicitor. فهذا الأخير يتخذ الإجراءات ويجمع المستندات، أما الأول فهو يصدر الفتوى وترافع.

وإذا كانت التقاليد القضائية توجب إنتخاب القضاة من المترافعين. فإن القضاة يسهرون على صيانة كل ما يميز المترافعين من غير المترافعين.

وبيننا نجد المحامي غير المترافع في غالب الأمر شريكاً لجماعة من زملائه في مكتب، نرى المترافعين أرفع من أن يكون لهم شركاء.

المحاماة المترافعة إذن تعتمد كل الإعتماد على المحاماة غير المترافعة، ما دام غير المترافعين هم سبيل المترافعين إلى المتقاضين.

وكثيراً ما تنتهي القضايا في مكاتب الأولين فلا يبقى للمترافعين إلا ما يصل إلى الجلسات، والإنجليز بطبيعتهم أمة «تسويات» كأفراد وكأمة. وهم أكثر الناس قصداً ونصفه فيما بينهم... فهم يصالحون خضوعاً لأحكام المحامين مخافة الإجراءات القضائية وما أطولها، بل ما أقصر العقل عن التثبت من عواقبها.

سأل محام شاب رئيس محكمة في فرنسا عن الصلح في الخصومات فأجاب «إن كان حق موكلك قوياً فصالح عليه خصمك وإن كان ضعيفاً فترافع...» كأنما يقول إن الدعوى المضمونة الكسب قد تخسر فالصلح خير فلا تجازف، والمضمونة الخسار قد تكسب والقضاء مقامرة فقيم لا تجازف..! فالصلح للأولى درء للاحتمال السيء والمرافعة في الثانية مجازفة قد لا تنتهي بتحقيقه...!

وقديماً اتهم الخصوم أخطب الخطباء «ديموستين» وهم له ظالمون فلاذ بالفرار من سجنه حتى لا يتعرض للمحاكمة، فمن ذا يضمن عواقب المحاكمة؟

قال دورمسون Dormesson وقد طالما حكم بين الناس بالقسطاس «لو اتهمت بسرقة قبة كنيسة نوتردام وسمعت الناس من خلفي ينادون اقبضوا على اللص، لكان أول ما أفعله أن ألوذ بأذيال الفرار...».

تلك سلطات المحامين غير المترافعين على القضايا قبل أن تصل إلى يد المترافعين فإذا وصلتهم لم تخضع كل الخضوع لتصرفهم، إذ هي تصل إليهم بعد أن يجمع المستندات والأوراق المحامي الذي لا يترافع، فترتبط بخط سيره... فهو لا يعدو أن يكون زميلاً... وإن لم يكن هو الذي سيتكلم..

ولقد تكون حقيقة الواقع، أن موكل المحامي المترافع، هو المحامي غير المترافع. ولا يصير المحامي مترافعاً إلا إذا نجح في إمتحان أمام مجلس للدراسات القانونية، مؤلف من أعضاء منتخبين من دور المحاكم الأربع التي يقيد المحامي في جدول واحدة منها، ويحضر دراساتها ثلاث سنين للتمرس بالبحوث العملية في كنف أستاذ مترافع، ولا تمتع التقاليد غير الإنجليز أن يدرسوا هذه الدراسات، أو يجوزوا تلك الإمتحانات أو يحترفوا المحاماة. فإذا نجح المحامي الشاب في الإمتحان صار مستشاراً ناشئاً J.C. أى: Junior Council

حتى إذا برزت كفاياته في الوسط القضائي سمي مستشار الملك King's Council أو K, C أى محامياً كبيراً.

وللمحامين المترافعين جماعات ينضون تحت لوائها.

وللمحامي الإنجليزي كبرياء تقليدية فترى كاتبه يحدد مواعيد، وصلاته بالناس، وتراه لا يتحدث عن الأتعاب وإنما يتحدث الكاتب.

بل إن في ظهر ردائه جيباً صغيراً يرمز إلى عادة درج المحامون المترافعون عليها من قديم الزمان أيام كان الموكلون يضعون الأتعاب في ظهر المحامي دون أن يراها... أو يراهم... أما الكاتب فلا يرقى إلى درجة محام مترافع ولا محام غير مترافع... وإنما يترقى إلى كاتب قاض.. وهي وظيفة ذات شأن هناك.



بدأ المحامي الناشئ أعماله في المحاماة... ولبت غير قليل لا يهبط عليه ذلك الإنسان الملائكى الذى يترأى للمحامي، بعد قيد اسمه، في شكل موكل، تحت جناحه قضية... ثم إذا بقضيتين يوكل في كل منها في مقابل جنيه واحد وانشرح القاضى صدرًا بمواهبه المبشرة، وجاد عليه بكلمة من الكلمات التي لا تكلف القاضى شيئاً وتضع للمحامي كل شيء، فلم يكذب يبرح قاعة الجلسة حتى وكل في نفس اليوم، في قضية بعد ظهر اليوم... بشمانية جنيهات. واختص بالقضايا الجنائية، فكان يترافع في كل قضية، ولكل موكل وفي كل محكمة، فأتاه التنوع في القضايا أعظم الثمرات، وأتيحت له قضية فتى قتل حبيبته بعد أن أسلمت الكرى أجفانها في غرفة استأجرها لبيبتا فيها ليلة القتل، فلما أرداها قصد إلى دار عمته للإعتراف بجريمته وتحرير وصيته.

كانت نظرية «مارشال هول» أنه قتلها في ساعة جنون، لكن المحكمة قضت بإدانته فلم يكذب يسمع الحكم حتى مسه طائف من الخيل لم يتخل عنه حتى ألقى الحكم.

وترافع ضد امرأة يقال لود، قدمت أحد عشر طفلاً للوجود، في سبع عشرة سنة، لكنها ذبحت منهم ذات يوم ثلاث بنات وهن نائمات.

وظفر زميله عنها بالحكم المنشود - وهو عقوبة القتل مع الجنون.

وتعدد ظهوره في مواقف الإتهام في تلك الأيام، مع أن تمثيل الإتهام كان ضد طباعه، ولقد طالما حمد الله إذا جعله يقضى حياته في مواقف الدفاع.

أو كما كتب لأحد أصدقائه «أن الوقوف دائماً ضد المتهم، مهما قبحت التهم، ينتهى بإهدار

العاطفة الإنسانية في الإنسان، ولقد نصحنى الأصدقاء بذلك قديماً فانتصحت وعدلت عن تمثيل الإتهام».

وأدركت الصحافة من ذلك الحين خصائص مرافعته فكتب كاتب أنه «يقاقل بشدة في قضاياها، ويقف أحياناً دون مبالاة، أمام القضاة» وكم كلفه ذلك من العناء!...

عنف قاض شاهداً لم يتذكر واقعة من الوقائع فصاح «مارشال هول»: «عندما أرى أعضاء من الهيئة القضائية. يصنعون هذا الصنيع أظنه فاضحاً».

بل هو لا يرحم المشرع فيقول عن بعض القوانين «لقد شرعت هذا القانون أغلبية لم توفق إلى نصح».

انتقد قاض سؤالا له، فأمر بعدم توجيهه قائلاً: أنت تعلم أن توجيه سؤال كهذا عمل معيب جداً!...

فأجاب «عندما يرى الرجل رأياً ليس من السهل أن يعدل عنه».

قال القاضي: لا تتراجع.

قال الأستاذ: سأترافع لأنني أوتيت أجراً على أن أترافع.

وترافع. وكسب.

وكان القاضي «ماتيو» لا يطيقه - روى «مارشال» أن صديقاً لها، عرض أن يجمع بينها، فقصدا إليه في النادي ولبت «مارشال» في الخارج رينما يتحدث الصديق إلى القاضي ويعود فيصحبه إليه، لكن الصديق كر بعد دقيقة على عقبه وهو يقول: (لا. لا فائدة. إنه يكرهك).

ترافع يوماً عن فتاة في جريمة حريق فبنى دفاعه على أن اشتعال النار كان «عوارض» لا يفعل فاعل وأنها شبت من «مكواة»، وكان «ماتيو» رئيس الجلسة فعارضه، قال مارشال هول: إني رأيت بعيني رأسى ناراً اشتعلت على هذا النحو وأسهمت في إخمادها.

ولقد استبان بعد وجود أعواد ثقاب في مكان الحادث، فقال «ماتيو» ترى هل سيقول المستر «مارشال» إن أعواد الثقاب اشتعلت من نفسها...؟ فلعله يعرف أعواد ثقاب تشتعل من نفسها إذا نادى عليها وهو في مخدعه!



ولكن ما لهذا الوجود الإنساني يعلن الحرب شعواء على نوابه...!

لقد كانت مأساة «مارشال هول» في داره أهدح وأهول من أروع المآسى في قضاياها...

وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يكافح في الدنيا العريضة إلا إذا كان مطمئناً في دنياه

الصغيرة، وهي داره، فلقد كانت آية الشجاعة عند هذا الرجل العظيم الشجاعة، أنه وهو يتجرع غصص حياته العائلية، كان يكافح في الخارج ببطولة تسمو على الإطراء. قال للشبان يوماً، وما كان يتحدث إلا عن نفسه «افتحوا دفتراً للحسنات والسيئات في الحياة. وسجلوا الحسنات بحروف كبيرة في صفحة الدائن. أما المتاعب فقيدها بحروف صغيرة، وأصفر ما تستطيعون، في صفحة المدين، فالحياة لا تزداد سعادة بإدامة التفكير في المحن».

والحق أنه أخذ نفسه بهذه النصيحة أكثر مما أخذ بها أى إنسان سواه. سمع «مارشال هول» من زوجته - يوم جلوتها - أنها لا تحبه! وأذاقته المر من شهر العسل، تتركه في باريس يذرع الشوارع بحثاً عنها، وتهدأ لتغضب، فيتخبطه الشيطان، ومع ذلك يتجر في المجوهرات ليستوفي نفقات رحلتها.

كانت مرهفة الحس محطمة الأعصاب، فلم تكن لفتى قلق، حساس، يكسب نفقات حياته بالجهد واللغوب، يأوى إلى سكنه بعد معارك النهار، ينشد الرقد أو الراحة فلا يلقى إلا نفحات العذاب! وإن الاضطراب لينتقل من داره إلى أعصابه ثم إلى أعماله فيتخلى عن القضايا ويحيلها على زملائه - وقد عرفوا ما جاءه من البأس - ليترافعوا فيها بدلا منه متساندين في ميدان الإخاء العظيم الذى هو المحاماة.

ولم يك يد بما ليس منه بد فتاركا... وحاول أن يدفن آثار شقوقه في آخر الدنيا، ولاحت في الأفق بوارق الأمل أن شغرت وظيفة المدعى العمومى في «جاميكا» سنة ١٨٨٨.

أما هى - فرحلت إلى إستراليا فمكثت غير بعيد ثم قفلت راجعة وتلقاها ضابط حدث فتحابا، فاستزها الشيطان، فأحست بالجنين يضطرب في أحشائها...! وأهرعت إلى طبيب للإجهاض ورأت شبح المنية، فأبرقت في ساعة العسرة إلى «مارشال» بباريس، فخف الفتى المسماح فرأها فارقت الحياة بين يدي الطبيب بعد ستة أعوام نحسات من ذلك الزواج.

وسيق الطبيب إلى قاعة المحكمة التى، طالما جلجل فيها، من بعد، صوت «مارشال هول» لتسجل دفاترها عار أكبر محاميتها! وخمسة أعوام للطبيب... وعاش «مارشال» يجتر تعاسته بالذكريات.

لكنها يد السماء على الأرض، فقد شاركت المحن في تأليف مزاجه. فصارت مآسى موكلية مآسيه، وكأنما قذفت نفسه في النار، فخرج منها كما يخرج المعدن الحر بعد الإختبار، ففرط أنداده وفاق أثرابه.

وإنه ليرافع في إحدى قضاياها بعد حين من الدهر، فيصبح في مرارة تقدر الصخر «قد يكون الزواج في بعض الحالات أبعد العلاقات الإنسانية عن الفضائل».

بل هو بعد بضعة عشر عاماً في قضية «آنى داير» المتهمة بقتل طفل لها من سفاح ينفجر تلك الانفجارات الباهرة فيقول: «... إن قوانين الطبيعة تلقى العبء كله - جائرة - على عاتق المرأة في هذا الشأن دون الرجل ومع أن الجريمة جريرة اثنين فالعقوبة كلها تقع على واحد...».

وفي قضية «مارى هرمان» يصيح والدمع ينهمر على خديه: «اجعلوا الناس يتذكرون أن النساء لسن إلا ما يصنع منهن الرجال، حتى هذه المرأة كانت في يوم من الأيام طفلاً بريئاً...» ثم أدار وجهه فبصر بها تنتحب فصرخ في وجوه المحلفين صرخة مدوية تذيب الفؤاد: «... انظروا أيها السادة، إن السماء لم تمنحها فرصة فامنحوها...».



وشفت الحياة نفسها، وإن بقيت فيها آثار تدوب، وتلألأ النجم في آفاته، فلم يكذب يبلغ الأربعين حتى تجلى في سماء الحياة القضائية على أنه «معجود المحاماة» The Apollo of the Bar بما اجتمع له من مران واسع في الصناعة وتجارب كبرى من صروف الزمان، وحيا مشرق ناطق القسمات، وأعصاب مستجيبة لما يواجهها من الفوادم، وعبارات سريعة، مندفة، وأسلوب لا تستوقفه الصغائر ولكنه يضرب دائماً في الصميم، وبأقوى قواه.

كان من عقيدته أن المحامى ملك الناس لا لنفسه، وفي حضوره عون للعدالة أيّاً كانت الحال.

لم يك مثل «بتولو» بياهى في خريف العمر بأنه لم يتول الدفاع في قضية لم يكن ليحكم فيها ضد موكله لو كان في كرسى القضاء...!

وفي الحق إن المحامى الجنائى غير المحامى المدنى، وحضور المحامى في الجنائيات واجب أوجبه القانون. وكان أكثر قضاياها جنائية.

لم يعرف عنه في خلال عمره الطويل أنه تردد في قبول الدفاع إلا في قضيتين، ومع ذلك فقد أبى القدر إلا أن يحضر فيها ليتلقى في كل منها درساً على يد القضاء...

ففى الأولى: استشار «السير رتشارد وبستر» فقال له: رأيت لو كنت طبيباً. أكنت ترفض أن تعالج سيدة ختم اليأس على علتها؟

فقبل، ودرس، وظهرت له البراءة فأظهر عليها المحلفين فبرؤوها. فصار يقول: لقد تلقيت درساً لا أنساه أبداً.

وفي الثانية: جاءه وزير سابق متهم في جريمة خلقية، فحاول الخلاص منه واعتل عليه بطلب فادح في الألعاب فدفعتها من فوره! فلم يك بد له من المرافعة، ولاحت له في شهادة الشاهد الأساسي في القضية ثغرات نفذ منها إلى البراءة.

ولما جاء يشكر له قال: ألم أقل لك إني برىء!...

فأجابه: إني لم أعد أن أقنعت المحكمة بأن التهمة غير ثابتة!! فقبض الرجل يداً كان بسطها لمصالحته... ومضى...

ودار «مارشال» على عقبيه يقول:

لا دخل لذلك في الأتعاب ولا في آداب الحمامة.



وفي مارس سنة ١٨٩٤ قدمت إلى محكمة الجنايات قضية عاطفية أجرت ذكر المحامي الشاب على ألسن الناس.

تناهت إلى أسماع الجيران ذات مساء من غرفة «مارى هرمان» أصداء عراك، وصوت يقول: تكلم. تكلم. وآخر يقول: قتل! وعرف المحققون بعد ذلك أنها بارحت مسكنها وقت الحادث واشترت «براندى» ثم نقلت أثاثها بعد أيام من مسكنها وراقبها البوليس، وفتش المسكن الجديد، فكشف في أحد صناديقها جثة رجل عجوز.

لم تكذ تستجوب حتى قالت إنها التقطته مخموراً بالطريق العام فلما هم بها امتنعت عليه، إذ لم يكن معه مال، فضربها وضربته، وغشى عليه وصاحت به «تكلم»... ثم خرجت فاشترت زجاجة الخمر «البراندى» وضامادات لجراحه... وسقته، وضمدته، فنام، ولم يفيق منذ نام... وسيقت إلى المحكمة متهمة بالقتل والسرقة.

كان هم «مارشال هول» أن يثبت أن جراح القتل من جراء اشتباكها.

وتناول وضع الإصابات ووضع القاتلة من القتل. إذ أمسك بعنقها فدافعت عن نفسها بأن صرته، وهو عحور مخمور... واستغل خلافات الأطباء في كلمات بارعة كقوله: «إدا قضيتم بسق هذه السيدة فستشققونها برأى طبيب واحد بين أطباء»!!

واستطرد يبين لماذا قالت «تكلم» فلقد كانت مروعة إذ سكت، لأنها لم تكن تريد أن تسكت أنفاسه بالوفاة! وإلا فلماذا أسعفته بالبراندى والضامادات.

وإن وظيفة المرأة التي فطرها عليها فاطر السموات والأرض هي التطبيب!

وصاح والدمع ينهل على خديه «اجعلوا الناس يتذكرون أن النساء لسن إلا ما يصنع منهن الرجال، حتى هذه المرأة كانت في يوم من الأيام طفلاً جميلاً وبريئاً»

وجلس بلا أمل بعد ثلاثة أيام من الكفاح ولكنه ألقى وهو يجلس بصره على القفص فبصر بالمتهمه تنتحب في ذعر، فانبعثت منه الأنة العالية «انظروا أيها السادة! إن السماء لم تمنحها فرصة فامنحوها...»

ورأى المحلفون إدانتها ولكنهم طلبوا لها الرأفة، ليمنحوها الفرصة...
وقضى بسجنها ست سنين.



وفي خاتمة القرن وقعت فضيحة «بالفور» فقدم للمحاكمة مع آخرين وتولى «مارشال هول» الدفاع عن الشريك «بروك» فاهتزت باسمه أسلاك البرق في مهاب الرياح الأربع.
كان «بالفور» عضواً في البرلمان وعمدة «لكريدون» فتقدم للشعب بمشروعات شركات لبناء المساكن يربح السهم فيها 8٪، فسالت إليه أموال الأمة، واستخدم «جورج بروك» في القيام على شركاته، من شركة بناء، إلى شركة تأمين، إلى شركة أراضي، إلى بنك لخدمة هذه الشركات...

وأباح للمديرين أن يتعاملوا مع اسركات التي يديرونها بأرباح، فربط مصايرهم بمصايرها، وخزائنتهم بخزائنها، وازداد الكسب اكل سبب، ولم يمض طويل وقت حتى كانت أرباح المديرين وأرباح المكتسبين تأتي من اغتيال رموس الأموال!

ومع ذلك فقد استمر إقبال الناس على الاكتتاب معتمدين على اسم «بالفور».
فلما أذنت الشركات بالانحيار، فر إلى أمريكا الجنوبية بما استطاع الفرار به، وضبط بعد قليل فسيق إلى إنجلترا، وكان قد استوطن البلاد وغزا قلوب أهلها، حتى ليسبق الفرسان القطار لينتزعوه من قبضة البوليس.

وفي سنة ١٨٩٥ قدم للمحاكمة مع شركائه يتصدرهم «جورج بروك»، متهماً بتزوير أوراق لموازنة حسابات الشركات، وتقدم لتمثيل الاتهام وللدفاع عن «بالفور» أساطين الفقه الجنائي في إنجلترا.

كان «بروك» - كالأوراق التي يصطنعونها - تحت أمر وإذن «بالفور»! لكنه لم يكن يحلم بأن شركائه ستنهار ذلك الانحيار حتى ليودعها كل مدخرات زوجته. بل إنه ليودع إحدى الشركات ٣٥٠٠ جنيه قبيل افتضاح الأمر...!

ولقد كان ذلك العصر عصر امتحان النظم البرلمانية، ففى فرنسا اتهم النواب في ١٨٩٦ رئيس المجلس «فلوكيه» بأنه ارتشى من شركة قناة «بناما» بثلاثمائة ألف من الفرنكات! وتداولت الصحف اعترافاته، فراح المسكين يقول للمجلس الذى يرأسه: إننى أخذت ذلك

المبلغ من أجل صيانة النظام الجمهورى!! وقبض على الشيوخ والنواب والوزراء! واتهم «كلمتسو» نفسه، فدافع عن نفسه بيانه وبمسدسه!! ضد النائب العظيم أو الشاعر العظيم «دروليد» وحكم بالحبس على «شارل دلسيس» ونجا الأب «فردينان» من محكمة الجنائيات لمضى المدة.

وفي نفس العهد كان النائب «ولسن» صهر «جيل جريفى» رئيس الجمهورية يتجر فى أوسمة الجمهورية، وهو مقيم فى قصر رئيس الجمهورية! فحكم عليه بالحبس عامين... ولم ينجح إلا بدفاع قانونى فى الاستئناف.

واستقال رئيس الجمهورية المسكين، وأضاف الفرنسيون - وكل شىء عندهم ينتهى بأنشودة - وأضافوا إلى أغانيهم تلك الأغنية «كم كانت العصور الخالية عصوراً قاسية! كانوا يعلقون اللصوص على الصليب - يشنقونهم - أما الآن فهم يعلقون الصليب «النيشان» على اللصوص».

وفى نفس العصر كانت فضائح شركات «روكفلر» فى أمريكا، من رشوة النواب والشيوخ والوزراء، فلما حوكت شركاته قضى عليها بأكبر غرامة عرفها التاريخ القضائى فى العالم «تسعة وعشرون مليون دولاراً» وقال له القاضى «لانديس» (إنى لآسف إذ لا أستطيع الحكم بأكثر من ذلك حتى تساوى الغرامة فظاعة الجريمة، وإنه «روكفلر» أصاب الهيئة الاجتماعية بأفدح مما يصيبها به المزورون والمختلسون).

ترافع مارشال هول كما قالت جريدة معاصرة «مرافعة بليغة العبارة متزنة الأداء، صادقة، مخلصه، تلائم الظروف إلى أبعد الحدود». قال: عرفت بروتك لثلاثة أعوام خلت وإنى لأجزم من ملاحظتى الشخصية له أنه رجل شريف برى، لقد فقد كل شىء. وإنه لينفق على دفاعه من عطف أصدقائه! إن من الحقائق المسلمة أن رجالاً يغالون فى تقدير رجال آخرين فيسيرون وراءهم بكما، عمياً، دون أن يفكروا فى التحقق من أمرهم على استقلال.

وأشاد بتحملة المسؤولية عن سواه من المحاسبين، وكان حصيفاً لم تفارقه الفطنة، حتى إنه ليوجه سؤالاً ويعتذر عنه فى إسماع يخلب الأبواب قائلاً: إنى أعتذر عنه لأنى لا أراه منتجعاً... فنهض المدعى العام يعتذر له عن اعتذاره، قائلاً: ليس فى الإمكان أبدع مما كان!!

ولما انتهى من دفاعه هنأه السير «ويستر» - وكان من هيئة الاتهام بقوله: إنى لم أسمع خيراً من ذلك فى طول ما حييت لا شكلاً ولا موضوعاً...!

ذاعت فى هذه القضية مقدرة مارشال هول على تحريك القلوب فى القضايا العاطفية، فوضع قدمه فى سلم المجد ولم يتوقف عن الصعود.

وقبل النطق بالحكم قال رئيس الجلسة «بالفور»: «لقد قيل إن الأيام لو واتتك لنجحت شركائك، أى استترت زلاتك. لكن نجاحها لم يكن ليمحو الغش الذى سودت به وجه الدنيا فى أعين المساكين من مخدوعيك. إن قضبان الحديد لن ترد عن أذنيك أنات الشكالى والأرامل اللانى جلبت الخراب عليهن».

وأدار وجهه إلى «بروك» يقول «لقد وقفت إلى جانب «بالفور» وأسهمت فى انهياره لأنك مدين له فى كثير مسوق إلى تأييده بعاطفة لا تقاوم - وكان لزاماً عليك أن تتذكر أنه ليس من الشرف أن يكون الرجل غير أمين».

وحكم على «بروك» بتسعة أشهر، وعلى «بالفور» بأربعة عشر عاماً ولم يكذ «بروك» يبرح السجن إلا إلى القبر.

وأما «بالفور» فاستوفى أعوامه الأربعة عشر، وخرج يبحث عن عمل.



وفى سنة ١٩٠٠ ترافع عن «آنى داير»: فتاة عاملة، خدعها رجل من الطبقة الراقية، متزوج، فرحلت إلى حيث وضعت حملها. وفى ذات يوم قالت للفتاة التى تقوم على خدمتها «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا».

ونام الطفل فى مخدعه ثم لم يعثر له على أثر. ورحلت فى الفداة إلى أخت لها.

وجد البوليس فى آثارها ودارت عجلة التحقيق فأجابت «سأقول لك الحق لقد قتلته - إننى لم أعرف كيف أتصرف فيه - لقد وضعته فى صندوق - ستجده هنالك».

وعثر البوليس على الصندوق حيث دلت عليه. ووجه إليها البوليس تهمة القتل فاعترفت - وكان أفدح الأدلة عليها قولها «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا».

أما الدفاع فكان بديعاً: إذ جعل عبارتها دليل برامتها، مع تعديل بسيط فى النبرات والإشارات، وفى إخراج العبارات، جدير بالحامى الذى طالما مثل نفسه بالممثل.

فإذا قالت الفتاة التى ترضع طفلها وتهدهه «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا» فإنما هى قالة الحب والإعجاب... وهى على كل حال ليست كلمة القصد المصمم على إعدام وليد بين يديها، تسلمه تديبها...

أما قولها «لقد قتلته - إنى لم أعرف كيف أتصرف فيه - لقد وضعته فى صندوق» فإن المعنى الإجرامى فيه يستحيل إلى معنى إخبارى فيه مرارة الندم للإهمال، إذا صح قوله عنه وهو أن ترتبط الجملة الثانية بالثالثة وأن تنفصل عن الأولى.

ولقد أيد ذلك التخريج فهم مفتش البوليس للعبارات عندما دوتها. فلم يتهمها بالقتل العمد، في محضره؛ ولكنه اتهمها بمجرد القتل... أى بمجرد التسبب فيه.

وانطلق يصب على الاتهام نارا. وتحركت ذكرياته، وارتاع الحضور لذلك الفيضان الدافق من الفصاحة... لكن أحداً - اللهم إلا مساعده وقاضيه - لم يدرك لماذا يتضافر تياران من المرارة، وقوة العبارة، على الأخذ بمجامع القلوب، كقوله «إن قوانين الطبيعة تضع العبء كله جائرة على عاتق المرأة في هذا الشأن دون الرجل. ومع أن الجريمة جريرة اثنتين فالعقوبة كلها تقع على واحد! لقد فكرت في أن أكشف لكم عن الرجل الذى اختلس من هذه الفتاة فضيلتها، لكنى آثرت أن أعفيه وزوجه، وأن أدع الفتاة السجين تحمل وحدها كامل العبء وكل النتائج». تأثرت المحكمة بكل كلمة فاه بها الدفاع، فقال القاضى للمحلفين في تلخيصه:

«لاشك أن المتهمة كانت مشغوفة بوليدها. إنى لم أشهد في حياتى قضية كان لنبرات الصوت فيها هذا المدى من الأثر. وإن ما روته الشاهدة عن قول المتهمة «كيف يمكن التخلص من طفل كهذا» مع بعض الضغط على كلمة «يمكن» ليزيد الأمر تعقيدا. أما عن قولها لمفتش البوليس «لقد قتلته. إننى لم أعرف كيف أتصرف فيه» فإننا لو وقفنا عنده ثم استأنفنا قولها «لقد وضعت في صندوق» فإنه يكون قولاً عجباً. مثلها هى الحال إذا قالت «لقد قتلته لأننى لم أعرف كيف أتصرف فيه». فإذا وقفنا قليلا بعد عبارة «لقد قتلته» ثم استأنفنا قولها «إننى لم أعرف كيف أتصرف فيه ووضعته في صندوق» فلا تكون العبارة ذات خطر».

ورأى المحلفون البراءة.

وتعالت الهتافات فقال القاضى للجمهور نحن في محكمة لا في مسرح!

وفى ختام العام وقعت وقائع قضية يارموت، فترافع فيها إحدى روائع مرافعاته. وسنورد خلاصتها بعد.

مع السلطة الثانية

في سنة ١٨٩٩ قرأ كف مارشال هول أحد شهود قضاياه، فتنبأ له نبوءات قال عنها في كتاب بعث به إليه في سنة ١٩٢٤ «لقد حققت الأيام صحة نبوءاتك إلى حد عجيب»... قال قارئ الكف لاشية في كفك تشير إلى نجاح حتى الخامسة والعشرين، لكنك تنبأ بعد الثلاثين مكانك بين عطاء صناعتك. إن في رأسك بلاغة أكثر من المنطق. وأسوأ ما في كفك الجانب العاطفي. سيغرم بك النساء لكنهن لن يعدنك! وفي حياتك زواجان أولهما بئس، يصيب كل حياتك. وستموت وأنت في قمة المجد، وفي كامل أهبتك».

ولم يكد ينصرم العام حتى جاءت تباشير الحياة السياسية حيث كان يقضى إجازته بعيداً عن لندن يتأهب لقضاء الصيف في «مارينباد».

وفي صبيحة يوم السفر إلى مصيفه تعجله البرق لمقابلة «اللورد دربي» بلندن، فخف إليها حيث عرض عليه أن يخوض غمار الانتخابات في دائرة «سووث پورت»، لينتزع من يد حزب الأحرار مقعد اللورد «كرزون» وكان الأحرار قد غلبوا عليه المحافظين في الانتخابات السابقة. ومع أنه لم يكن يستحب معارك الانتخابات، فقد خب فيها ووضع... وضع يوماً نداءه الانتخابي ودفعه إلى نادي المحافظين في الدائرة قائلاً «لقد أنفقت ساعات في إعداده بمساعدة زميلي «المستر مور» وهو حجة في النحو».

وهكذا في تلك المناسبة من مناسبات الغرور لم يفارقه من طباع المحامي العظيم الاعتراف بمجهود مساعديه.

كسبت إليه في سنة ١٩٠٠ إحدى المعجبات به عقب قضية «يارموث» تطلب صورة «لأكبر المحامين رشاقة وعبقرية» فبعث إليها بشكره، وبصورة زميله عن المتهم!

تجلت عبقريته في الانتخابات كما تتجلى أرواح الجان: تسأل خصمه قائلاً «من مارشال هول هذا؟ إنه لا عنوان له!» فأجاب «مارشال هول»: «إذا انتظر مناقسي بضعة أسابيع فسيعلم أن عنواني الدائم: مجلس العموم».

كان التشابه كبيراً بينه وبين «كيرزون» لكن طباعها كانت تتنافر، كان هول رجلاً شعبياً

أما «كيرزون» فلمصر به عهد يذكرنا بصلفه وكبره في مفاوضات عدلى - كيرزون.. ولما مات قال شاعر إنجليزي «إننا نشيعه بالثناء. لكن أعيننا جافة».

مشى المرشح الجديد في أسواق «سوثبورث» يعرض عروضاً انتخابية تفتن فيها طبيعة المحامى الساحر، والصادر الماهر، كأن تضع زوجته الجديدة في فمها سيجارة، أو ورقة لعب، فيصيب الورقة والسيجارة بمقذوف نارى وهى بين شفيتها...!

وقاطعه رجل في اجتماع انتخابى فأهاب به أن يصعد إلى المنصة لجداله! وصعد المسكين ولم يسمع الناس صوته فسألوا: ماذا يقول؟ فصاح «مارشال هول»: هو يقول إنه يتمنى لى النجاح!...

وفهم خصومه، بعد الأوان، أن الصعود إلى المنصة محنة المحن...! لقد سعى إليها أحد المعارضين يوماً فلم يكذب بلقها حتى تقطعت به الأسباب، وأدرك أنه وقع في حباله. فصاح في فزع المستجير «لقد انسقت كما يساق الكباش إلى الذبح!... أهذه أساليبكم فى معاملة الرجال؟ أنا فى دهشة.. إن التقاليد المسيحية لا تسمح بهذا الخ.. الخ»

وبارح الاجتماع بين صحبات السخرية وضحكات النظارة.

كان يتلو فى اجتماع انتخابى لاحق فقرات من نظام وضعه المحافظون لاستخفاف العمال وكان خصومهم يسمونه بأنه نظام استرقاق فراح يتلوه، مادة مادة. ويتساءل: أهذا نظام استرقاق! وكانت كثرة المجتمعين ضده، فكان الجواب: نعم، فكان يستطرد ثم يسأل ويكون الجواب: نعم! نعم! نعم! فحانت منه لفتة بارعة من لفتات الارتجال، قال: «أنا سعيد بهذه الإجابات.. إن النصوص التى أتلوها نصوص النظام الذى وضعه خصومنا»

ظفر مارشال هول بالكرسى، واحتفت به الجماهير وهو فى شرفة الدار» إذ أعلنت نتيجة الانتخابات، وكانت زوجه إلى جواره، تلوح للجماهير بمنديل أبيض!... تماماً مثلها تنبأ قارئ كفه.

قام يتكلم لأول مرة بمجلس العموم تأييداً لمشروع قانون لمنع الأطفال أن يتعاطوا المسكرات فى المحال العامة. وارتفع صوت عضو ساخر يقول «لماذا لا توزع البيرة عليهم فى بيوتهم فى البكور، كما يوزع اللبن فى قوارير»؟ فتابع الخطيب الفكرة قائلاً «لم لا؟» وفيها هو يستطرد ضح المجلس كله بالضحك.

كانوا يضحكون معه، فظنهم يضحكون منه، فلم يفرها لمجلس العموم أبداً. ولم يظهر له بهذا المجلس بعدئذ أثر فى موضوع ذى خطر.

وبقى فى المجلس كأنه عضو أشل يقدره زملاؤه حق قدره، لكنهم لا ينظرون إليه كسياسى

وإن تعجب فعجب أن تجرد السماء على البلدين المتفايرين في الدم والطباع، برجلين كأنهما نسختان لأصل واحد، في الدم والطباع، وفي المجلس التشريعي:

كان «لابورى» عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسى لكنه - كدأب «مارشال هول» في مجلس العموم البريطانى - لم يكن له أثر، فلقد كان حسبها دنيا حافلة بالمآسى يحملان فيها أفدح الأعباء إلى جوار مواطنيها.

كان «مارشال هول» يقدم نفسه كلها، مع فنه كله، لموكليه، في الوقت الذى كانت ترن فيه أصداء صوت «لابورى» في أرجاء العالم، بدفاعه عن «فايان» إذ ألقى القنبلة في مجلس النواب الفرنسى، ذلك الدفاع الذى لا تستطيع بعد تلاوته إلا أن تتساءل مع النقيب «بايان»: «كيف لم يبرئوا المتهم؟» وبكفاحه عن «إميل زولا» و«دريفوس» مضحياً في سبيل عقيدته المال والراحة، والطمأنينة والرفاهة.

ولما نفذ رصاص الحمقى في جسده، لم ينفذ الرعب إلى قلبه، بل أجلت القضية ثلاثة أشهر حتى يبرح المستشفى ليرافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص!

ولما هوت من فم النائب العام وهو إلى جوار المحكمة في أعقاب قضية «إميل زولا» (١٨٩٨) كلمة استهجنها «لابورى» رشقه بأروع كلام يرتجله محام، في وجه الاتهام، ذباً عن حياض المحاماة. قال «إن سبابك التى سقطت من كرسيك الرفيع لن تستطيع الصعود إلى المنصة الرفيعة التى أترافع منها».

وكأنما كان «شارل شنى» يصف «مارشال هول» وهو يصف «لابورى» «... قامته العالية المستقيمة وصدرة العريض وكتفيه اللتين تشبهان أكتاف المصارعين. كل ذلك في تجانسه وانسجامه ينم عن قوة لا يمكن قهرها. وقسمات وجهه الجميلة المنتظمة التى تتفجر حياة في حدة الصراع... وعاطفته المهتاجة تنشر الشحوب على وجهه، وإذا بصوته يرتفع وينتفخ ويدوى كصوت الرعد...»

وفي سنة ١٩٠٦ دعى «لابورى» إلى انجلترا فكرمته جمعية المحاماة المسماة جماعة «هاردويك» وكان في رياستها المحامى الإنجليزى العظيم «ماتيووز».

فلما مات «لابورى» أبته ماتيووز بقوله «... إن لابورى بما فيه من الجرأة المزهوة، والوفاء لعمله كمحام، يمثل مكانة عالية في قائمة أكبر محامى العالم. إن اسمه وشهرته لا يمكن أن تزولا بل سيعيشان طويلاً ما دام نظام المحامين قائماً على وجه الأرض».

وما أصدق هذه الأقوال في جملتها وتفصيلها لو وصف بها مارشال هول، كمحام وكإنسان.

مع السلطتين الثالثة والرابعة القضاء والصحافة

في سنة ١٩٠٠ سلكت الصحافة في قضية «يارموث» مسلكاً معيياً، إذ انطلق الصحفيون يزيفون الأسانيد، ويهددون الشهود، بل يحققون ويحكمون، فاصطنعوا رأياً عاماً ضد المتهم، وتقدم الدفاع إلى المحكمة بطلب إجراء المحاكمة بعيداً عن «نورفولك» حيث المحكمة ذات الاختصاص المحلي، وكان قبولها ذلك الطلب حكماً قاطعاً بأن الصحافة أفسدت عقيدة الرأي العام.

حاول الدفاع أن يكبح جماح صحيفة «الإيفنج نيوز» واندفع كدأبه فقهر «صاحبة الجلالة الصحافة» وعزها في الخطاب، فهي عنده «كالفول يشرب من دماء ضحاياها» بل إنه ليقول للقضاة «إن الصحافة اعتدت عليكم مثلما اعتدت على المتهم».

وبعد قليل وقلته الممثلة الآنسة «شاتل» ضد صحيفة «الدبلي ميل» لطلب ١٠٠٠ جنيه تعويضاً عن كلمة جارحة، وكان الدفاع عن «الدبلي ميل» قد اعترف بخطئها وطلب ثلاثة أسابيع لتحضير الدفاع.

فلما ترفع «مارشال هول» قال فيها قال: إن طلب الصحيفة ثلاثة أسابيع لتحضير الدفاع - مع اعترافها بالخطأ - لم يك إلا أجلاً مطلوباً للتنقيب عما يتعلق بالمدعية في سائر أقطار إنجلترا!

ثم قال: قد تكون موكلتي ملزمة بالعمل لكسب رزقها، لكن لها من الحق في احترام سمعتها ما لسائر السيدات في إنجلترا، بما فيهن الليدى «هار مسورث» (زوجة صاحب الدبلي ميل). وكانت «الدبلي ميل» قد نشرت أن الآنسة بوت بنت الآنسة «شاتل»، وكانت «بوت» زوجة للورد «هدفورت» أما «شاتل»، فلم تكن سلخت من عمرها ثمانية عشر ربيعاً، ولما نبهت الجريدة إلى ذلك ذكرت في عدد لاحق أنها أخطأت خطأ ظاهراً... وأن المعجبين بالآنسة «شاتل» يعرفون أنها سيدة لم تزوج، ولم تذكر السن، والنشر الجديد، على هذا الوجه الجديد، قدح جديد.

وظفر مارشال هول ظرفراً فذاً، إذ زادت المحكمة التعويض عما طلبته الطالبة نفسها، فجعلته ألفين وخمسمائة من الجنيهات.

لكن هذا النصر الخاطف كلفه كثيراً.

فلئن كان عذره في قضية «يارموث» قائماً، إنه لم يكن ليعذر في العنف في قضية «الدبلي ميل»، وكان حقد صاحبها أعظم من أن يذر مارشال هول. لأنه قال فيها قال «... بما فيهن اللیدی هار مسورث..».

استأنفت الدبلي ميل، وإذا بالمضاعفات تتلاحق، إذ قدمت القضية إلى دائرة كان القاضي «ماتيو» عضو اليسار فيها.

ولقد كان يجمل بهذا القاضي الخصم أن يتنحى، لكن القضية كانت قضية «شاتل ضد الدبلي ميل» لا قضية «الدبلي ميل ضد مارشال هول» فلم يستنكف أن ينظرها.

كان «ماتيو» يعتقد أن أسلوب «مارشال هول» ينبو ويكبو بغير داع، وكانت أسباب الاستئناف في الواقع موجّهة ضد المحامي، فبدت البغضاء من أفواه القضاة، وانطلق ماتيو يتحداه، فواجه التحدى بنظائره، وقذف بنفسه من متعبة إلى متعبة، وبلغ المد أقصى مداه، حين نعت «ماتيو» تعليق «مارشال هول» في صدد مهلة الأسابيع الثلاثة. بأنه تعليق مؤذ لا أساس له بالمرّة.

قال مارشال: بل له أساس.

قال القاضي: كلا....

قال هول: هكذا ظن المحلفون....

.....

قال القاضي: لقد كان إسناداً معيباً.

قال هول: هذه إهانة.

.....

ولما ترفع بعده الأستاذ «منتاج لش» جرى على غراره، فتولى كبره «ماتيو» وعاد يقول: لقد كان قولاً كاذباً أن يسند إلى دفاع الجريدة أنها استأجرت ثلاثة أسابيع لهذا الغرض.

قال الأستاذ «لش»: لكن هذا الغرض كان محتملاً من جانبهم.

قال «ماتيو»: خير لك أن تكف عن هذا حالاً.

وهكذا تساقطت من فم القاضي كلمات أعنف من كلمات من حكم عليه!... حتى ليقول عنها لورد «بيركنهد»، كبير القضاة فيها بعد: «إننى واثق أن محكمة الاستئناف قد ارتكبت في حكمها جريرة عدم الإنصاف لمارشال هول».

ولما أصدر القضاة الحكم لم يتناهوا عن المنكر فتعتوا أسلوب «مارشال هول» نوعاً أصابته في الصميم، في مهنته وفي سمعته، وفي مستقبل حياته.
وانطلقت شياطين الأقلام من عقالها تسيح في أنهار الصحف، بالخط العريض، والشرح المستفيض... وما بالك بقضية صحفية خذل فيها خصم الصحف...!

حقاً إن الصحف القانونية انتقدت القاضي في عنفه لكن «مارشال هول» راح ضحية الحملة فهجرته الكثرة الغالبة من قضاياه ودارت عليه دائرة السوء بما تحدثه به هذه الدائرة من القضاة. ففكر أن يتحدى - بدوره - «ماتيو» بمنزلته في دائرته الانتخابية بعد أن يستقيل من مجلس العموم...

نسى هؤلاء القضاة أن الحقائق القضائية ليست حقائق حسابية، بل هي أمور نسبية، تتعلق بأطماع الناس وانحرافاتهم، وأن الخطأ القانوني جاثم في أصول الوجود الإنساني كله، منذ أزل الشيطان أبونا عن فهم القانون فذاقا الشجرة، فأخرجها مما كانا فيه، ودفع بينها معها إلى هذه الدنيا بعضهم لبعض عدو...؟.

فعلام يتشدد القضاة هذا التشدد فيما ظنوه خطأ في التقدير، أو في التعبير، من أعظم الرجال الذين اغازوا في أمتهم بالارتجال، وهم العليمون بمبلغ ما يختلف في الحقائق القضائية المفكرون، والمفسرون، والمعبرون.

لقد ذهب الحكم الابتدائي في تأييد مارشال هول إلى أبعد مما طلب! فقيم تلك الثورة من القاضي العجيب في الاستئناف؟.

إن ذمة المحامي لن تؤدي ما عليها إلا في جو صالح من الإخلاص والإنصاف والرمالة. المحامي متكافل مع القاضي في أداء «الحقيقة القضائية» ومن أجل ذلك فالمحامي «أول فاض في القضية»، في حين أن القاضي، «آخر محام في القضية» لأنه هو الذي يتولى الدفاع عن حكم هو نفسه «عنوان الحقيقة» لا «الحقيقة».

المحامي يتراجع للقاضي ليصدر الحكم... والقاضي يتراجع للعالم - بكتابة الأسباب - لتصدق الحكم... وهما زميلان متجاوران، يجلس أحدهما إلى منصة عالية في هدوء وأمانة واطمئنان، ليحكم دون أن يتكلم، ويقف الثاني مجلجلاً بصوته، مجاهداً بأسلحته كأنه الجندي في الميدان، فيمثل المحامي «طلاب العدالة» التي تطلب بالقوة والأمانة، ويمثل القاضي «مانح العدالة» التي تمنح بالإنصاف والرزانة، في قاعة يجتمع فيها الإنسانى والربانى، تسمى دار القضاء...! وفي هذه القضية كان نصيب المحكمة الابتدائية أعظم من نصيب المحامي، لكن القضاة قست قلوبهم في الاستئناف، فتركوا المحكمة وأمسكوا المحامي..!

كانت طباع «مارشال هول» طباع رجل مكافح، مندفع، مخلص وهى طباع لعلها لا تصلح لرجل السياسة أو الإدارة أو المجتمعات، لكن فيها من الإخلاص والقوة وإنكار الذات ما يجعله أصلح الناس للمحاماة.

وقف يتراجع عن اللورد «رسل» ضد اللادى «سكوت». فقال القاضى «هوكنز» فى صدد واحد من أسئلته: غريب!.. فصاح «هول» إن هذه الملاحظة - لصدورها من ذلك المصدر - لا تغتفر!...

فقال القاضى فى هدوء: لا تغفرها.

وأصر «مارشال هول» على توجيه بعض الأسئلة.

فقال «هوكنز»: إن هذا الأسلوب يراد منه المضارة.

قال «هول»: بل العدالة يا حضرة القاضى.

قال «هوكنز»: بل المضارة.

قال «هول» بصوت عال: العدالة لا المضارة.

كانت الحقيقة عنده أجدر بالاهتمام من قواعد النظام، والعدالة أولى من عمالها بالاحترام، ومن أجل ذلك هابه رجال القضاء وشاع عنه أن المحلفين يجبنونه وأن القضاة لا يجبنونه، وأنه يحتاج خصومه بما يتجافى مع النصفة، ويسلق القضاة بألسنة حداد، وهو براء من كل ما نسبوا إليه.

إنما المرافعات معارك فيها الكر، والفر، والهجوم فى المواجهة، ومن الجنب، ومن الخلف، فى ميدان لا حدود له سوى القضيصة، ولقد درج القضاء فى كل مكان، نصب فيه ميزان العدالة، على التجاوز عن فرطات الارتجال، لأنهم علمون بمخاطر الكلام من كثرة ما رأوا وما سمعوا. ومن قلة ما تراقعوا!...

فإذا حوسب المحامى ذلك الحساب العسير على ما ينطق به لقاى كلماته، قياس من يمضى على الصراط خطواته، وإذن لما استطاع المداره المقاويل أن يبينوا، وللبسوا الحق بالباطل، ومردوا على التفائق، تحت هذه السيوف المصلطة على الأعناق، وإذن لبخعت المحاماة نفسها لانهيار دعامتيها وهما البيان والحرية.

كان «ففيانى» سريع الإلقاء كمارشال هول حتى لينعته «هنرى رويير» بأنه «أسرع الخطباء البرلمانيين» بل كانوا يسمونه «البلاغة» فوقف يوماً يتراجع أمام محكمة «آلبى» بفرنسا، قبل ذلك ببضع سنين فى ١٧ مارس سنة ١٨٩٤، عن رجل كذف عمدة فاستفتح الكلام عن الاتهام

بأنه «غير عادل ومستبد» فوجه وكيل النيابة إليه جنحة الإهانة، وحكم بإيقافه شهراً ليصير بعد قليل وزيراً للعدل فريئساً للوزراء...!

ولما ترفع النقيب «كارتيه» في استئناف حكم الإيقاف، ختم مرافعته بما يجب أن يتدبره القضاة قال «... فإذا اطردت نظرية محكمة «آلبى» فتصبح المرافعة مستحيلة، ولئن حتمتم على المترافعين أن يقيسوا كلماتهم كما يقيس الساترون خطاهم، وأن يزنوا كل لفظة، ويترددوا أمام التفسيرات التي قد تنسب إلى تفكيرهم، إنكم لتخاطرون بأن تختنقوا أروع وثبات الارتفاع وتحمدوا جذوة الفصاحة...»

ومن قبل «فقياني» وقف «إميل أوليفيه» في صدر الشباب قبل أن يضحى رئيساً للوزارة الفرنسية وصديقاً للخديوي إسماعيل، وقف يترافع عن الفيلسوف «فاشيرو» صاحب كتاب «الديموقراطية» فرمى الأفوكاتو العمومي بأنه يستعين بالشهوات المثيرة، فطلب إليه أن يعتذر عن هذه المبادرة فأصر بل أضاف «إن شخص النائب المترافع محل احترامى. أما مرافعته فملكى أمزقها إرباً إرباً ومن حقى أن أطأها بقدمى» فأوقف ثلاثة أشهر وقررت محكمة الاستئناف أنه إذا كان من حقه الدفاع فليس من حقه المهاجمة...!

لكن محكمة النقض قررت أنه لا دفاع بغير هجوم...!



انصرف الناس عن «مارشال هول» إذ ناصبه القضاء العداء، فعمد إلى لآلئه ببيعها وإلى ماساته يرهنها، وأخذت أفئدة زملائه، بين محب وكاره، تهوى إلى الرجل الكريم النفس في محنته، حتى أن عميد المحامين ليعث إليه قضية كبرى عطقا عليه في مصابه...!

ونزل إيراد مكتبته من أكثر من أربعة آلاف جنيه سنة ١٩٠١ إلى ألفين سنة ١٩٠٢. بل نزل هو إلى أن يرهن دبوساً من الماس لقاء خمسمائة من الجنيهات في أغسطس سنة ١٩٠٢. وحاول زميله «رافس إيزاكس» أن يدخل في العملية على أن يرد الدبوس إليه في خلال عام أو يبيعه لمصابه فشكر له صنيعه وأبى.

وفي سنة ١٩٠٤ لم يبلغ دخله ألفين... وفي سنة ١٩٠٥ لم يصل إلى ألف وثمانمائة. لكن المحاماة لم تكن يوماً ولن تكون تجارة، فالضيق لا ينسخ مزاياها والنعمة لا تضيف إليها فخاراً.. إنما هى رسالة تتعالى مع المسغبة كما تتجلى مع الرفاهة..!

هى كفاح مستمر يشرح المقاتلون فيه صدرًا بالغمرات. فإذا أصابوا مالا فتعامت عين! وإلا فإن هذا الرداء الأسود هو رمز التضحيات الأعزى الذى لا يساميه عزاء.

والمحامى الحق يهوى المحاماة للمحاماة! ومن عجب أن يثاب المحامون على أفعال يود

الموهوبون منهم لو قدموا أمواهم لمن يتيحون لهم فرصة القيام بها، في سبيل الكرامة، والكفاح، والاستقلال.

من أجل ذلك لا ينجح الرجل في مهنته على قدر كفاياته كما ينجح رجال المحاماة... ذلك النجاح الإنساني لا التجاري، الذي هو السيادة لا الثروة. والتضحية لا الاستغلال. لم تكن عزمات مارشال هول، بل أخذ يكافح كوا من البغض وظواهره من القضاة، وتجلت مواهبه في شدته، والمواهب العظمى لا تبرز مثلما تبرز في المحن.

قال له قاض في قضية اختلاس كبرى، لقد سمعتك يوم الثلاثاء! إلى متى نسعى مرافعات! فهم به ليحييه لولا أن نبهه زميل له بقوله: تذكر أنه يجلس هناك. وأنا نجلس هنا! مع ذلك لم ينجح إلى السلم ورد بقوله: إنني أظن أنك لم تسمعي لأنك كنت راغباً عن سماعي!

قال القاضى: ليس لك يا مستر «هول» أن تقول ذلك الكلام! - لقد نويت عدواناً وليس لك الحق في العدوان...

وعاد «مارشال» فاعتذر وهذأت الزوبعة. بل توشجت الصداقة بين القاضى وبينه فصارا صديقين حميمين.

وفي يوم من أيام سنة ١٩٠٢ وقف الأسد الجريح يترافع في قضية أحد المسارح خمس ساعات ونصف ساعة، وخرج ظافراً بتحيات القضاة، محموقاً بستين من رجال المحاماة، جاءوا يسمعون ويحيطونه بهالة من الإجلال هي حسبه لترفع اسمه إلى صفوف زعماء المحاماة في سائر الأجيال!

وأى تحية لمحام في أمة من الأمم أن يستمع إليه وهو يترافع ستون من المحامين! وهم المتنافسون أحياناً، الراسخون في العلم دوماً..!!

إنها لبيعة إذا انعقدت لمحام كان أحق الناس بقول ماكساييتو «المحامى ملك». وفي سنة ١٩٠٣ نهض يترافع ضد سيدة أمريكية عن رجل كانت قد استسخرته ليوافقها بأسرار زوجها، وكان الزوج قد قضى نحبها قال لها تراؤه، ونبه القاضى «مارشال هول» إلى أن يأخذها باللين، لا بالعنف، وأن يتذكر معاركة السابقة مع خصومه، فلم يكذب يلقى بنفسه في عرض البحر حتى استرد حريته فأطلق شراعه! ولم يسكت عن اتهامها لموكله بالتشهير والتشيع فحمل عليها حملة صادقة وكسب الدعوى.

ولم تكف الصحف عن طريديتها، فاقتفته حينها ثقفته، فإذا خسر القضية عرفته، فسطرت اسمه في كمال أحرف الهجاء، وإذا كسب نكرته وأشارت إلى اسمه بالحرف الأول فقالت

م. هول مع شيوع اسم (هول) بين الإنجليز! بل إنها أحياناً لا تشير إلى اسمه الأول البتة فتقول «مستر هول».

وأخيراً التقى بواحد من رجال «الديلي ميل» فسأله عن أسباب هذه المؤامرة السافرة، فأجابه لأنك لم تتراجع ضد «هارمسورث» وحده يوم ترافعت في قضية الديلي ميل ولكنك ذكرت اسم زوجه!! قال معاذ الله إنى لم أقصدها بسوء وكتب إلى «هارمسورث» معتذراً فتلقيا وتصافيا وكانت نهاية المحنة.

دورة الحظ

لم تكد تنتهى سنة ١٩٠٥ حتى واجه مارشال هول مصايره في الحياة، مخفقاً في المحاماة باعتبارها مصدراً لرزقه، وفي نفس العام ماتت أخته التي كانت أحب الناس إليه وأحناهم عليه. وفي نفس العام دخل الانتخابات فمضى حزبه بهزيمة نكراء أضاعت منه دائرته الانتخابية! لكن العظائم كفؤها العظماء، والعظيم لا يخرج من المحنة منكسراً، فخرج «مارشال هول» من محنته وقد صهرته الأهوال، فأظفرته بكنز موفور من التجارب، وخبر طبائع الناس، والقضاة، وقوى الصحافة، وازداد لصناعته حياً، لأنها زادت عراً.

ومن المحامين العظام طرازان، طراز تبنيه التجربة وآخر تبنيه الكتب، ويبدو أن بنيان التجارب أقوى من بناية الأسفار والمراجع، فالتجارب وقائع حية فيها من الحياة ومن التطبيق، مالا تحويه الكتب، والعلم المتاح في غمراتها ليس علم الفروض والنظريات والنصيحة، وإنما هو علم يشارك فيه المتعلم بذات نفسه، إذ يصنع العلم ويحصله معاً.

من أجل ذلك كانت تجارب مارشال هول غذاء قوياً لذاته وكفائاته، وكانت تجارب «الهلبارى» كالتيار الحفى يجرى تحت الثرى فيملاً العيون والآبار، وليس شىء كالفن، اعتماداً على المواهب لا على الشروحات، فلقد طالما خلق الفن النظريات واستبق الوقائع، وليس كالمحاماة العظيمة فن، لأنها حرب بالجهد وبالفكر، تعتمد على العلوم والفنون جميعاً. وأخلق بالتجارب العظيمة، أن تبني الرجال العظماء، فكيف إذا اقترنت بالقوى الخالقة التي تسوق الرجل فينساق تبعاً له الرجال... تلك القوى المسماة بالعبقرية.

أقبلت سنة ١٩٠٦ ودار الحظ دورات مسعدة، وفتح الله عليه بركات من السماء، فتتلاً اسم في الصحف كما جلجل صوته في المحكمة، وعلا التيار، وفاضت سيول النجاح من كل جانب، وعاد الميزان إلى الاعتدال.

في نهاية سنة ١٩٠٧ وكل في قضية الفنان «وود» إذ اتهم بقتل غانية يغشى دارها - وكأنما كانت ناقوساً قرعه الحظ في أقطار الجزيرة ليجذب الأنظار والأسماع، إلى أحسن صوت عرفه الإنجليز للدفاع، فبرئ المتهم، وفي خارج المحكمة آلاف من أهل لندن.

وإن حقيقته لتسرق يوماً وهو على سفر، وفيها ما فيها من نفاثه وأعلاقه، فرجع إلى قومه غضبان أسفاً، لكنها أعيدت بعد أيام لا تنقص حبة، ومعها رسالة من السارق، أنه لو عرف صاحبها ما سرقها!!.

وذاع في المجتمع أنه المحامي الأكبر في قضايا القتل، حتى ليوجس رجل من رجال المال خيفة إذ نصح بتوكيله ويقول: لو وكلته لحسبني الناس قاتلاً.

وفي سنة ١٩٠٩ ترافع عن «إدوارد لورنس» مرافعة نعتها بأنها أعظم نصر ظفر به.

وفي سنة ١٩١٠ ترافع عن الدكتور «كربين» الذي سمم زوجته فأعدم.

ولم يكد العام ينصرم حتى اشتملت التعيينات القضائية على ألمع الأسماء مثل «منتاج لش»

الذي لم يهب يوم هدهما القاضى «ماتيو» «ورافس إيزاكس» صاحبه يوم رهن الدبوس. ولم يعين «مارشال هول» في القضاء، فليس ينسى ما كان بينه وبين القضاء.

وضاق نطاق الاختيار عند المتقاضين...

ودارت عجلة الحظ من جديد.

وجلس على كراسى القضاء أصدقاء قدماء باسمه ثغورهم. فشاع الابتسام في الأفق.

ودخل انتخاباً فرعياً للبرلمان في أول العام - خرج منه بكرسى في مجلس العموم.

واستفاض الابتسام، في نهاية العام، ودخل الانتخابات العمومية وظفر بكرسيه من جديد.

ولقد طالما كانت الحظوظ الحسان، وما تزال، كالجوارى الحسان، جوارى في موكب المنتصر،

تلاحقه، ولو على رغمه، عوامل الظفر.

فإذا عيبت الدنيا تولت عن الرجال فأسلمتهم الجودود العواثر إلى جودود عواثر، وجروا إلى

حتوفهم، كأنما يهرعون إليها عن عمد وهم لا يفقهون...!

وفي مارس سنة ١٩١٢ ترافع في قضية التسميم عن «سيدون».

وأعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وهو في السادسة والخمسين، فلم يبرز للقتال

وزادت الحلقة ضيقاً على الموكلين، فزاد رزقه سعة، وآلت إليه قضايا زملائه المجندين فكان يبعث

إليهم بنصف الأتعاب.

وهي ظاهرة يقدرها رجال المحاماة - كما قدرها «لورد بركنهد» وهو يتحدث عن إرساله نصيبه في قضاياها.

وفي سنة ١٩١٨ قدم إليه موكل قديم «شيك» بأتعاب ليس كالذي قدمه له بأتعاب منذ ثلاثين عامًا، تمامًا (سنة ١٨٨٨) فالشيك القديم كان بسبعة جنيهات. والشيك الحديث كان بسبعمائة... وألف من الجنيهات!.

وفي إبان الحرب ترفع عن السفاح يوسف سمث. الذي تزوج من ثلاث زوجات. وهو متزوج - وأودى بين بطريقة لم تكتشف، فلفظن أنفاسهن الأخيرة في (البانيو) في المساكن الذي كان يعدها لهن، ولم يبد عليهن آثارًا! ولم تعرف الجرائم إلا بعد ثلاث سنوات. شغلت المحكمة أيامًا بالقضية وهي في حيرة. فليس ثمة أدلة مادية، أما القرائن فمهلكة! فاستهل مارشال مرافحته بعبارات تملأ نفوس الإنجليز زهوًا، وقلوب القضاة سموًا. قال «في هذه الآونة التي تقضى فيها الملايين من زهرات الشباب الإنجليز نجبهم في الميادين، أليس مما يرفع هاماتنا فخارًا أن يكرس القضاء هذا المجهود القانوني والقضائي الضخم يومًا بعد يوم، لتحقيق وقائع هذه القضية الصامتة، للتحقق مما إذا كانت روح رجل واحد تستحق أن تزهر، إنها لمفخرة رائعة لنظامنا القضائي!».

واختتم مرافحته بقوله: «كونوا منصفين لأنفسكم وللمتهم! كونوا عدولا بالنسبة للعدالة نفسها قبل أن تحكموا في مصير هذا الإنسان فتقولوا إن هذه التهمة الهائلة قد ثبتت». وحتى هذه السن كانت تملكه العاطفة فتنتقل انفعالاته وأحاسيسه في عباراته: قال مرة للقضاة من أجل فتاة «إذا أيدتم هذا الحكم كان ذلك خروجًا عن الإنسانية». ونزل الحكم من ٤ شهور أشغال شاقة إلى غرامة ١٠ جنيهات.

كان يترافع في سنة ١٩٢٠ عن ضابط قتل خليلته وكان كما قال «لا يبد شيئًا يقوله في مواجهة محلفين كونوا أفكارهم ضد موكله» وفيها هو يسعى بين غرفات المحكمة اعترض بصره رهط من السيدات جنن يشهدن المحاكمة، فتفتحت له أسرار البلاغة، وظل يترافع ساعتين طويلتين ودموع المحلفين تنهمر، وهو يعرض غرام القاتل بالقتيل بانبيًا دفاعه على جنون المتهم - واستفتح المرافعة بالانقراض المدمر على «اللائى قدمن إلى القاعة متسرבלات بالطرز الغالية، حاليات الجيد بالأعلاق، يتفرجن يومًا بعد يوم على مأساة قلب محطم، يتلمس إنقاذ روحه من برائن الجلاد!»

ثم يقول «إن النفس لترمى للأونوة في بلد هذه نساؤه!...»

المحامى الفنان

وكل مارشال هول فى بواكير حياته بخمسين جنيها فى قضية قتل فطار فرحاً بياهى زميلاً له بتلك الأتعاب، لكن زميله قال: «إنى لا أقبلها بمانة! إنى أكره الجنائيات» فأجابته «أريد أن أتخصص فى فن الموت والحياة والسجن والحرية. إنى أحب أن أتداول الوقائع لا النظريات لست أعرف كثيراً من القانون ولكننى أستطيع أن أدرس طبائع الرجال والنساء».

اختار هذا الفن من المحاماة وهو يعرف أنه أشد فنونها إرهاقاً وعنناً فالمحامى المدنى أرسقراطى مستجم، لا يكافح فيسيل دمه أو دم الخصم، أو ترفض دموعه، أو يتفصد عرقاً فيغير ملايسه فى غرفة من غرفات المحكمة، مثل «مارشال هول» فى إنجلترا أو حسن علام فى مصر، ولا يصيح حتى يتوقف صوته عن أن يسمع مثل «لابورى» وهو يرد على النائب العمومى فى قضية «زولا»، أو تعصف به العواصف فيخسر نصف عمره، من فجاءت الجلسة ككثير من المحامين الجنائين، أو يعمل بالقطعة، جنحة جنحة، وجناية جنابة.

إنما يسرد المحامى المدنى فى هدوء وطمأنينة، ويلبس ملابس منشأة يخلعها كما لبسها، وتصله أتعابه فى نهاية العام من الموكل الدائم، أو فى أعقاب القضية مما أغنى به موكله. موكلوه وجهاء أو أغنياء، فإن لم يكونوا ثراة أو سرة كانوا طلاب مال أو جاه. أما المحامى الجنائى، فلا يطلب سوى الحرية أو الكرامة.

فأما من يجيئون من الوجهاء والأغنياء فيجيئون يوم يجيئون تعاء بؤساء.

هو كلاعب السيف فى الحلبة، أما المحامى المدنى فكلاعب الورق، على المائدة، الجنائى كالجراح، أما المدنى فكالطبيب الباطنى، وهو كالبحر فى أحشائه الدر، وفى أمواجه العواصف والنذر، أما المدنى فكالبحيرة أو كالجداول أو كالنهر.

قضى مارشال هول حياته كلها فناً.. كانت الحياة على لسانه محور الدفاع وغايته. فكانت ترهقه تبعاته ومن أجل ذلك لم يكن التعبير الانجليزى (He fought a Case) حارب فى قضية «أو الفرنسى» (attaquer en justice) «يقاى فى المحكمة» ليجد مصداقه فى حياة محام أو أسلوبه مثلاً وجد فى حياة مارشال هول وفى أسلوبه.

كان يعالج النيابة والمحكمة والمحلين والشهود جميعاً، واحداً إثر واحد، فى كل فكرة، وكل خاطرة، وبكل ما ملكت قواه. كأنما ينازل فريقاً من اللاعبين ليجلبهم عن مراكزهم شبراً شبراً، بضربة وراء ضربة، مع الجهد المستمر والانتباه المظفر.

والمحامى الإنجليزي يتولى إدارة القضية كلها فترة من الزمن عند الاستجواب. فهو يسأل الشهود ويستجوبهم كيف يشاء، ولا يقنع بمجرد شهادتهم كالنظام الفرنسى أو المصرى... حتى ليستخرج القاتل من القفص ليستجربه كشاهد لا كمتهم!...

وكانت قوة الذهن وسرعة البديهة وطبيعة الهجوم التى ركبت فى طباعه لا تدع الشاهد إلا إذا لم تذر منه شيئاً!... فكان الشهود يرتاعون من ذكر اسمه.. فكيف بهم وهم بين أصابعه. بين مخالب الأسد!

بلغ مارشال هول أوجه فى قضية (سدون) يوم اختتم معاركة الهائلة فى تلك القضية بهذه الكلمة العظيمة «لقد حدثنا العلماء الفحول الذين سمعناهم فى هذه القاعة بكثير من عجائب العلم ومن النتائج التى يمكن الوصول إليها به، لكن شيئاً لم يستطع علماء العالم كافة أن يوجودوه، ولن يستطيعوا أن يكتشفوه، مها بحثوا، ومها درسوا... وهو: كيف نعوض هذه الشعلة الصغيرة المسماة بالحياة إذا أضعناها!.

إن على عاتقكم مسئولية حياة هذا الإنسان، فإذا قضيتم ضده فإن هذه الشعلة الحية ستخبر، ولم يعرف العالم حتى الآن علماً يستطيع أن يرجعها...».

ولم يكده يجلس حتى جاءتته من كرسى الاتهام الرسالة التالية «عزيزى مارشال هول.. إنها مرافعة عظيمة حقاً - وهى أعظم ما سمعنا من عظامك».

ووقف النائب العمومى - وكان «رافس إيزاكس» ليعقب على مرافعته وختم بقوله: إذا استيقنتم أنه لا مراء فى ارتكاب المتهم للجريمة وساورتكم الريب فى أمر المتهمة فواجبكم أن تبرئوها.

وسنرى لماذا قال ذلك... ولماذا برئت.

فلقد كتب إليه فى الغداة يقول: «عزيزى مارشال هول».

بصراحة، وبإخلاص، لا ككاتب عام، ولكن كصديق قديم، دعنى أقل لك كم راعنى دفاعك فى قضية «سدون». إن الدقائق الخمس التى وقفتها على المتهمة أحدثت أروع الأثر. وفى رأى أنها صنعت كثيراً وإن لم تصنع كل شىء. لبراءتها.

... لقد كان على عاتقك عبء فادح... إنى لا أريد أن أناقش القضية ولكنى أريد أن أقول أمامك ما أقوله من ورائك، لقد بذلت مجهوداً جباراً، فى أسلوب عظيم من تقاليد مهنتنا العظيمة... ولقد سطر هذا الكتاب ليكون تقديراً من خصم راعه عمل عظيم قام به العامل فى نبالة وجلال، وتعبيراً من صديق طالما لقى منك تأييداً كريماً بل أكثر من كريم.

لقد قررت عيني لانصرافى قبل صدور الحكم، أتمنى أن تكون صحة زوجتكم في تحسن، وأرجو أن تذكروني لها...
صديقك المخلص للأبد.

«رافس إيزاكس»

تلك كانت آثار مرافعته في المحكمة، وفي المحلفين، وفي النيابة العمومية، أما في الجمهور فحسبنا شاهداً أن تشرع المحكمة في نظر قضية «جرينورد» المتهم بالقتل بالسم والبوليس يحرس المتهم من سخط الجماهير، لكن المحاكمة لم تكند تصل إلى نهايتها، حتى كانت الحراسة الخاصة بالمتهم لازمة لشهود الإثبات.

وظل في مغرب حياته كما ننسأ في مطلع شبابه، هاوياً عظيماً للحلى وقتاناً... كان يتدارس مع زميل له قضية طبيب كبير في حضرة الطبيب فترك موضوع القضية وأقبل على رميله يقول له: ما رأيك في هذه الياقوتة؟ وتداولها، ثم تبادلها، والطبيب في دهش مما يرى. ومن المحامى «الجواهرجى!».

لقد شهد يوماً في معرض أحد المحال عشرات من فصوص الماس قدر لكل منها ثمن قليل تستوى كلها فيه، فدخل يطلب بعضاً منها بالثمن حسب نسبته إلى المعروض جميعاً، فأبى الجوهري لأنها كانت أغلى ماسات المجموعة وهو يبيع للجمهور لا «للجوهريين» العليمين بالخبايا من أمثاله.

كان سريع الإلقاء حتى اعتبروه نكبة لكتاب الاختزال...! ألقى ٣٧,٠٠٠ كلمة في أربع ساعات في قضية «سدون» أى أكثر من ١٥٠ كلمة في الدقيقة... لمدة ٢٤٠ دقيقة متصلة! في حين تكلم النائب العمومى ٢٩٠٠٠ كلمة في نفس المدة!

ولم يكن يقيد نفسه بخطة مقررة، بل كان يغير خطته تغييراً تاماً وفقاً لمفاجآت الجلسات. وتلك خطة الهلباوى وهنرى رويير وزعماء الارتجال. بل خطة عبقرى الخطط في التاريخ - مع الفوارق بين معارك الجدال ومعارك القتال - نعى نابليون إذ يقول: «ويل للقائد الذى يذهب إلى الميدان وقد ربط نفسه بخطة لا يغيرها تبعاً للظروف» أو كما كان النقيب الفرنسى «بتولو» في عهد مارشال هول يقول: «المحامى كقائد الجيش لا يغفر له أن يدخل المعركة دون أن يكون قد رسم خطته. كل ما هنالك أنه يستطيع أن يغير هذه الخطة في كل لحظة - فالمرافعة في الظهر ليست كالمرافعة في المساء!... كما أن عليه أن يعرف الفقه والقضاء، على ألا يستعبده الفقه والقضاء، بل هو يقاومها إذا خالفا القانون. ولقد طالما قلت لموكلتى إنك ستخسر القضية أمام القاضى لكننى أراها صالحة فسأقبلها. ومع هذا لم أكن دائماً أخسر».

إنما يحكم المحامي العظيم دراسة دعواه، وارتجاله كفيل بوضع القوى اللازمة في المنطقة أو في اللحظة الحاسمة.

لقد كتب لا بوري مرافعته عن «إميل زولا» قبل الجلسة وهو يظن أن المحكمة لن تسمع الشهود، ولكنها فاجأته بسماعهم، فظل يسمعهم خمس عشرة جلسة، وهو يستعين بالحمام قبل أن ينام، ليغسل في الليل متاعب النهار، ثم، كما قال «جاء يوم المرافعة فألفيت أمامي ملف القضية ولا فائدة لي فيه ولكن وسائلى كانت بين يدي».

قذف «لا بوري» بنفسه في معركة لم يتوقعها، فجاء ارتجاله بالأعاجيب. كان الارتجال ديدن نظيره الإنجليزي، بل كانت في الإنجليزي صفات جندي العصابات، المرهف الحس، الحديد البصر، الجسور المبتكر، يقاتل بالفريزة لا بقواعد الحرب، ومع ذلك يظفر بالجندي المدرب، يمضى كما يقول بارتو عن زعيم الثورة الفرنسية المحامي دنتون «... غير منتش بحميا الفرور الأدبي. لا هم له إلا أن يقتنع. يحتقر الصباح الذي لا معنى وراءه والحامسة المصطنعة والعبارات الخاوية، فيه من الفريزة أكثر مما فيه من الطريقة... رجل عمل يسلك لغايته كل السبل، بما فيها من تنوع وابتكار مفاجيء ملء بالكنتوز...».

فإذا عثرت عينه الفاحصة - عين الصياد القديم - على محلف حليف لوجهة نظره، راح يستميله ليتخذ منه نقطة ارتكاز، ليصب الباقي من قواه على الباقي من المحلفين. وتلك كانت طريقة لاشو مع تعديل بسيط: إذ يكشف لنفسه أقل المحلفين فطانة فيتراجع له... ويتراجع له... حتى إذا فهم كانوا جميعاً قد فهموا...

كثبت إحدى الصحف عن «مارشال هول» وهو في الثلاثين «لقد أقبل الناس على هذا المحامي الشاب الذي حبه الطبيعة خير عطاياها: روعة تمثيل، ولطف محضر، وجهارة صوت، وبلاغة، توحى جميعاً بأن له مستقبلاً غير عادي من النجاح» أو كما عبر عن أسلوبه في ذلك الحين واحد من زملائه بقوله «هذه المرافعة العنيفة العاطفية الخطابية إلى حد عجيب التي استمعنا لها الآن».

فلما بلغ الأوج وصالح الدبلي ميل وصف فيها الكاتب الكبير «هول كين» طريقته في الدفاع والاستجواب وتصوير الوقائع وتمثيل الحقائق بأنها «تناجى العقل والقلب جميعاً مع الاندفاع العاطفي الذي يؤدي في بعض الأحيان لكنه لا ينحدر إلى الشخصيات».

كانت بلاغته وحيويته، وميله إلى (الدراما) تجعل أسمع القضايا قضايا مشهورة، والمرافعة العظيمة تجعل القضية عظيمة.

قال الرئيس أوديير «... المرافعة القوية هي التي تظهر فيها آثار الروح فتعرض بسمو

وبقوة، وبطريقة غير مألوفة للأسماع، آراء لو عرضت في أسلوب آخر لكانت تافهة...». فإذا عرضت له قضية ذات وجهين، وجه فيه يسر ووجه فيه مأساة، قذف بنفسه في تيار «الدرام» ليقوم بعمل عظيم لحساب موكله...

اتفق يوماً مع زميل في قضية عادية على حصر الخصومة في حدودها، واستأذنه زميله في أن يذهب ليرافع في قضية أخرى. فلما رجع وجد مارشال هول قد عبر كل الحدود...! ولم يعد ممكناً أن يعود! فخلاه مخلق في سماوات البلاغة، وفي أوضاع الدرام... وأسعفته المقادير.. وكسب الدعوى.

كانت مرافعاته فناً خالصاً تنسكب فيه روحه، وتتجلى انفعالاته، فيستحيل قطعة من الوقائع التي عاش فيها موكلوه، تسيل الدموع على خديه كما سالت في قضية «مارى هرمان»! ويسقط المسدس من بين يديه على بلاط المحكمة كما سقط على بلاط فندق «سافوي» في قضية «مرجريت ف...» ويسدد السلاح إلى صدور القضاة في قضية «لورنس» ويحطم الكأس التي يشرب منها في قاعة المحكمة، ليرى المحلفين مبلغ ما في الزجاج المحطم من خطر لافزع الخاطر، في قضية فتى قتل صديقه بسكين إذ قذفه برجاجة، فيظفر للقاتل بثلاث سنين بدلا من الإعدام!

بل هو يقول عن نفسه «إننى والممثل صنوان، غير أنى لا أستعين بنظر ولا كلمات محضرة ولا بأستار، وإنما أخلق من الحقائق والأحلام في حياة بعض الناس جوًّا صالحاً - لأن هذه هي المحاماة».



لقد بدأ حياته في المحاماة في العام الذى ختم فيه «لاشو» حياته في الدنيا، وكان يهدف حسه لاستغلال كل بادرة ويمتزج هو بأشخاص قضيته كأفذاذ المثلين، يندمجون في الدور الذى يمثلونه، فيحيا بهم إذ يحيون فيه.

وقف يترافع يوماً عن فتى قتل أباه وكان رئيس الجلسة صديقاً شخصياً له. وكان الرئيس قد قال له: هذا متهم سيسنتق على رغمك؟ قال «لاشو»! لست متأكداً!... وتراهننا.

ترافع «لاشو» ساعات وساعات، دون أن يلمح على وجوه المحلفين إلا الصدود، لكنه سمع فجأة أجراس الكنائس تدعو لصلاة منتصف الليل في ليلة عيد الميلاد فأملئ قليلاً، وقد تملكه الانفعال، فواتته العبقرية بكلمات الساعة، وراح يقول: في هذه الليلة السعيدة، في هذه اللحظة المقدسة، ولد لنا إله المغفرة، إله السلام إله الرحمة، إنه عيسى في المهدي يصبح بكم أن ترحموا... اذكروا أن الرحمة العالية ليست بذات حدود، ولا تكونوا أشد قسوة من الله نفسه».

وظفر لموكله بالظروف المخففة... فلم يعدم... وظفر بالرهان...

وفي ذات يرم أدلت أم القليل بشهادتها فأجرت من ذوب نفسها تياراً من الأسى في أنفاس المحلفين وران الألم على القلوب وسالت العيون بالدموع، وكان «لاشو» يحس مقدار ما يتأرجح من جراء هذه الشهادة مصير رقبة المتهم، فمد رأسه ليسمع، وحتى جذعه على المنصة ليملاً أذنه، وهم من مكانه، فهوت إلى الأرض «مجموعة لقانون العقوبات» كانت تحت ذراعها، فتهامس القضاة وتساءلوا، وطرقت الجلبة أذان المحلفين، فتساءلوا، وتساءل الناس، ونسوا تأثير الشاهدة..

كان فرط الإخلاص، خاصة من خصائص «مارشال هرل» فهو يدلى بكل ما يستطيعه لصالح موكله، بل هو قد يقول - إذا دعت الدواعي - إن معلوماته الخصوصية تؤيد وجهة نظر موكله.

فإذا وكله موكل لم يوكل «الأستاذ» وإنما استولى على «الرجل».

حقاً إن المرافعة لا يقدر لها النجاح مثلما يقدر لها عند الاقتناع، فكيف إذا اعتنق المحامي عقيدة موكله... لكن نمة فيصلا بين الاقتناع والاندفاع يجب أن يحسب المحامي حسابه، ليحفظ باتزانته واستقلاله، والقدر القضائي المسلم به له في مقامه. ولم يكن يكف عن خدمة موكله بعد انتهاء الحكم فكان يبذل قصاره بالسعى لدى شتى الجهات.

ومن قبله كان أستاذ الجيل «لاشو» لا يتخلى عن المتهم بعد صدور الحكم. بل هو يتابع جهوده في كل مكان حتى ليلحق الإمبراطور في رحلاته، فلما حكم بالإعدام على الدكتور «لابوميريه» إذ دس السم لعشيقته، جرى المحامي العظيم إلى «كومبيني» في إثر صديقه نابليون الثالث، فقبل رجاءه، ودعا وزير العدل «باروش» لإصدار مرسوم بالعمو، فنبهه على أن الناس قد يقولون «إن العفو منح القاتل لأنه طيب ولو كان من طبقة العامة لما أخلصه صاحب الجلالة بعفوه» فلم يعف عنه...



وفي يناير سنة ١٩٢٦ كان مارشال هول يترافع في قضية كبرى عن متهمين بإخفاء سيارات فترك الجلسات بعد أن بدأت المحاكمة ليلزم فراشه فلا يبرحه، وكأنما شاءت العناية أن تربط ماضيه بحاضره، وأن يتشابه العهد في منتهاه بمبدئه. كانت أول قضية وكل فيها قضية إخفاء وكانت الأخيرة قضية إخفاء بعد ثلاثة وأربعين عاماً.

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ انطفأت هذه الشعلة، التي سبقت فخاراً للمحاماة في العالم وومضة من ومضات البلاغة الخطابية في تاريخ الإنجليز. انطفأ المصباح والدنيا تستنير به، وفاضت روح الجندي وهو في سِكَته.

obeyikandil.com

في محكمة الجنايات قضية مرجريت ف...

لعل خصائص مارشال هول كمحام قد اجتمعت في قضية «مرجريت ف...» ومن حقها علينا أن نقدمها على غيرها لذلك، ولما تثيره في المصريين من شئون وشجون. فلقد أندفع مارشال هول في مرافعته إلى عبارات جارحة احتج عليها النقيب المصرى سنة ١٩٢٣، واعتذر مارشال بأنه لا يعنى مصر، ولا الشرق، وإنما يقصد المجنى عليه.

كان المرحوم ع... ف... ابن المرحوم ع... باشا ف... ومعه زوجه الباريسية الحسناء مرجريت ف... وسكرتيره س... ع... أفندى يقيمون بفندق سافوى فى لندن ليلة ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ - وكان الفتى فى الثانية والعشرين من عمره، يحمل فى لندن اسم «البرنس فهمى بك»! تعرف على السيدة «مرجريت لوران» بباريس فدعاها إلى مصر حيث بنى بها فى ديسمبر سنة ١٩٢٢، ولم يكذب يتم القران حتى تنافر الشخصان فتنازلا الزوجان.

ولما جلسا يتعشيان فى مساء ٩ يوليو سنة ١٩٢٣ قصد رئيس فرقة الموسيقى يسألها أى الأدوار يعزف لها؟ فأجابت:

شكراً. إن زوجى سيقتلنى فى خلال أربع وعشرين ساعة. فلست مشوقة إلى الألمان...! وفى الثانية صباحاً كانت لندن تن تن تحت عاصفة هوجاء، وكانت تحتاح فندق سافوى عاصفة أخرى، حين سمع أحد الحمالين طلقات ثلاثاً متتالية، فراح يتقصى فإذا «البرنس» فى مبادله، مضرجاً بدمه، ملقى على الثرى، يسيل النزيف من فمه، وإلى جواره مسدس ألقته به زوجته، وقالت لمدير الفندق:

ماذا سيصنعون بى؟ يا سيدى لقد تزوجته منذ ٦ شهور وشد ما قاسيت!!!.

وقالت للطبيب «لقد سحبت الزناد ثلاث مرات...».

وكان معلوماً أنها تحمل مسدساً لأنها تحمل حلالها فى حقائبها.

لكن لندن ليست كباريس فى هتافها للجرائم العاطفية؛ فكان مصير المتهمه مقررًا... إلى المشنقة.

لم يتخل عنها أصدقاؤها... فبدأت الاستعلامات فى شتى بقاع باريس لجميع التحريات عن

سمعة القتيل، وجرىء بائنين من الشبان بقيا رهن أمر الدفاع ليشهدا بحقيقة أخلاق «الأمير». وعهد إلى مارشال هول في الدفاع. وفي ١٠ سبتمبر نظرت القضية برئاسة قاض كان من قبل محامياً يساعد مارشال هول في القضايا.

وحضر الأستاذان عبد الفتاح^(١) رجائى وعبد الرحمن البيل^(٢) من المحامين المصريين يراقبان الدفاع عن سمعة القتيل.

وسمع س... ع. في اليوم الأول، وقدم الدفاع للمحكمة صحيفة مصرية تحوى رسماً كاريكاتورياً كتبت تحته: النور، وظل النور وخيال الظل.

The light, the shadow of the light, and the shadow of the shadow of the light.

يراد به ع.. ف.. وسكرتيره س.. ع.. وسكرتير س.. ع..!

استجوب مارشال هول س.. ع.. أربع ساعات كاملة ليستخلص منه الحقيقة عن حياة القاتلة في كنف القتل، وإليك مثلاً:

س: هل قلت للبوليس إنك حاولت أن تشبهه عن البناء بها؟

ج: نعم.

س: هل قلت إنه رجل شرقى مضطرب العاطفة.

ج: نعم.

س: هل كان مولعاً بها عندئذ؟

ج: نعم كان مشغولاً بها حقاً.

ثم تلا «مارشال هول» خطاباً يتوسل به القتل إليها لتقدم إلى مصر جا فيه... إنك تبدين لى محفوفة بهالة من الأحلام! يا شعله حياى، إننى أراك وعلى مفرقك إكليل قد احتفظت به لأقدمه إليك يوم تظأ أقدامك أرض أجدادى القاتنة...

وإنتقل إلى حياتها الزوجية فتلا كتاباً منه إلى أختها عقب الزواج جاء فيه: «لقد أخذت بسبيل تعليمها.. فلم أتناول معها أمس غداء، ولا عشاء، وتركتها في المسرح، فلعل ذلك يلزمها أن تخضع لرغباتى. إن على الرجل أن يتصرف مع النساء بحزم وقسوة».

وبين الدفاع كيف كان هذا الزوج المليونير يركب زوجته الترام...

وإنتقل من التعذيب النفسانى إلى التعذيب الجثمانى فراح يسأل س.. ع...

(١) نقيب المحامين في بنى سويف فيما بعد.

(٢) وزير المالية في الأربعينات فيما بعد.

س: هل وقع في ٢١ فبراير منظر عاصف؟ أو أقسم على القرآن أن يقتلها؟

ج: لا.

س: هل تعرف أنها كانت تخاف على حياتها؟

ج: لم أعرف مطلقاً.

س: هل أخذها معه على ظهر (اليخت الخاص) إلى الأقصر في ٢٣ فبراير، على ميعدة عشرة أيام من القاهرة.

ج: نعم.

س: أكان ستة من العبيد في خدمة اليخت؟

ج: نعم.

س: أتظن أنه شرع من تلك اللحظة يعاملها بقسوة؟

ج: لا أستطيع أن أقول قسوة - ولقد كان يغلظ بعض الغلظة.

س: ألم تك مدام فهمى في سنة ١٩٢٣ تغاير كل المغايرة مدام لوران سنة ١٩٢٢.

ج: ربما.

س: ألم تتحول من فتاة مرحة، باسمة الثغر، حسنة اللقيا، إلى سيدة كبيرة الفؤاد مهمومة؟

ج: كانا دائماً على خلاف.

س: هل قالت إنك وف.. كنتنا ضدها، كانت سيدة بمفردها ضد رجلين معاً؟

ج: نعم.

وحرص الدفاع على ألا يستطرد في البحث في أخلاق المجنى عليه، فتلك هجمه يتصدى لها

الاتهام بهجمة مضادة عن أخلاق المتهمه ... وس الحكمه السكوت ...

شهد الطبيب الذي أسعف القتيل أنها ذكرت له سبب شجارها، وأنها كانت تشكو آلاماً مبرحة فعزم أن يجري عملية جراحية في باريس، ولم يك معها مال، فمتعها بل جذبها بقوة وعنفها بقسوة. فكانت في فزع مستمر وأخرجت المسدس لتفرغ طلقاته، فأفرغت واحدة أطلقتها من لياقة لكنها وهي تصنع ذلك شهادته مقبلاً نحوها، فسددت إليه المسدس لتمنعه أن يهجم عليها، فلم تدر إلا وقذائفه تنطلق... وقرر الطبيب أنها أفصحت له عما قاسته بقولها: يا سيدي لقد تزوجت منذ ستة شهور وشد ما قاسيت...

وبدأ المحلفون يستشعرون هول ما عانت. فقد كان فيهم ثلاث نسوة... وخلا الجو لمارشال هول وهو يترافع في عاصمة العالم الغربي (لندن) عن متهمه من مدينة النور (باريس) فلم يحسب للشرق حساباً،

وافتح الدفاع، في اليوم الثالث، فتحدث عن زهو خارق للعادة يتملك الشرقي إذ يجد في

حوزته سيدة غريبة! وتحدث عن قسوة المتهم - الشرقي - إذ يتطلب من زوجته طاعته كالعبودية، ويعاملها بقسوة مستمرة حطمت أعصابها، وأضاف أنها تلقت في فندق ساقوى خطاباً غفلاً من التوقيع ينصحها فيه مرسله «ألا تعود إلى مصر مخافة أن تنجلى الرحلة عن حادث. كسم في زهرة أو سلاح لا يرى ولا يسمع! استمرى في باريس مع هؤلاء الذين يخبونك وسيحسونك».

قال الدفاع «كان يروق ذلك الزرج أن يطلق النار فوق رأسها لترويعها، ويقسم عبيداً لمراقبتها ومنهم عبد ضخم الجثة اسمه.. كوستا Costa!!».

وفي ليلة الحادثة لوح لها بالمال اللازم للجراحة التي كانت بسبيلها، ثم أباه عليها لتخضع لرغبته غير الطبيعية - وفي نفس الليلة هدها بالقتل! بل أخذ بخناقها وأمسك برقبته!... فحسبت أنه سوف يقتلها».

واستجوبت المتهمة فقررت أنه في شهر يناير أقسم على القرآن أنه قاتلها وأنها ستموت بيده وأنها كتبت إلى محاميها في باريس تقول إن ذراعيها يحملان «آثار ظرف (1) زوجها». وقررت أنها لم تكن أطلقت قذيفه واحدة! حتى ليلة الحادثة. وأن المسدس الذي استعملته قدمه القاتل إليها مشحوناً صالحاً للانطلاق، وأنها شهدت بفرغ مسدساته بفتح الخزانة وإخراج الخرطوش، فحاولت إخراج الخرطوش بعد أن خنقها، فلم تستطع، فعالجت ذلك بتحريك المسدس في النافذة فانطلقت منه قذيفة في الفضاء، ظنت بعدها أنه لم يعد فيه قذائف قابلة للانطلاق - لكن المسدس كان من المسدسات التي تملأ فيها الماسورة من نفسها عقب انطلاق القذيفة.

وأضافت أنها لا تعرف شيئاً عن الأسلحة النارية.

سألها مارشال هول: ألم تكوني تشعرين أنك ستكوين آمنة السرب في لندن! يريد أن يثير الاعتداد في أنفس المحلفين بالطمأنينة التي تبسطها مدينتهم للساكين فيها. واستطردت تروي الوقائع حتى خر صريعاً فجئت إلى جواره، تقول يا عزيزي.. لا شيء... تكلم... تكلمتي...

وتولت المحامية الباريسية الشابة.. «أوديت سيمون» ترجمة أقوالها إلى الإنجليزية... وفاجأ مارشال هول الاتهام بمستندين جليلي الخطر:

الأول: برقية أبرقت بها إلى باريس في ٩ يوليو تنبئ أنها قادمة إليها.

والثاني: وصيتها لمحاميتها بمصر: (أنا ماري... أنهم بصراحة في حالة موتي بعنف أو بأي

سبب، ع... بك بأنه شارك في اختفائي! لقد أقسم على الإنجيل أو القرآن في الساعة الثالثة

من مساء أمس ٢٦ يناير سنة ١٩٢٣... أنه سيثار لنفسه غداً أو بعد ٨ أيام أو شهر أو ثلاثة أشهر وأنتى يجب أن أختفى بفعله - ولم يكن لهذا القسم مبرر من غيرة أو سوء سلوك أو نزاع، إني ألتمس واستحق العدالة لبتى وأسرق).

وانطلق «مارشال هول» يقول ويقول... يتطور ويتطور، حتى تدهور، إلى حيث قال «لقد ارتكبت هذه السيدة الخطيئة الكبرى وتزوجت رجلاً شرقياً، إني أجسر على القول بأن الحضارة المصرية كانت، أو قد تكون، إحدى الحضارات القديمة العظيمة، ولكنك إذا انتزعت الغشاء الخارجى، من حضارة الشرقى، تجد تحته الرجل الشرقى الحقيقى».

وراح يصف كيف دل القتل قاتلته بالغرور فأدخلها في «جنته الشرقية» والعبد الضخم على رأسها. والقلق يسيطر على نفسها، وهو يضيفها إلى مملكته، وإلى الحرير التركى، وتلك أشياء لا تفهمها، ولا تستطيع أن تتعامل معها».

واستطرد بصوته المسرحى ونبراته التمثيلية يرد على كلمة النائب العمومى قوله إن المتهمه كان عليها أن تستعين ب... ع... ليدفع عنها أذى القتل، فقال بمن تستجير!! أليس س... عضو الثالث «النور. وظل النور. وخيال الظل».

وأشار إلى العاصفة التى اجتاحت لندن في تلك الليلة الليلية وتأثيرها في أعصاب السيدة المريضة النفس، المضطربة الحس، واستمر في فيوض التدفق البلاغى حتى وصل إلى حادث الإطلاق فمثل أروع موقف في تاريخه كمحام. ووصف القتل - كرجل شرقى - كوحش!... يهجم على سيدة ليقتك بها، ومثلها وهى تهدده بالمسدس وتصوبه تجاهه، وكيف انطلق ذلك «الشمى» الذى يكمن الفناء في أنحائه... وفيها هو يتحدث عن انطلاق «العبارة» أمسك المسدس وظل يسدده إلى صدور المحلفين حيناً، فلما انتهى من وصف القتل عندما سقط... أملى قليلاً... وترك المسدس يسقط من يده على الثرى... فوق بلاط المحكمة كما سقط على الثرى من يد موكلته فوق بلاط فندق سافوى!!

ولم يك باقياً إلا أن يفتح الأبواب للمتهمه فيقول: افتحوا الأبواب لهذه السيدة الغربية لتخرج، لا إلى ظلام الصحراء ولكن إلى بنتها، التى تنتظرها فاتحة ذراعها، افتحوا الأبواب لترجع إلى الأنوار التى تبعث من شمس الغرب...! وأشار إلى نور السماء حيث الصخر المتدفق في قاعة المحكمة يشيع الدفء والضياء، فتكاملت هذه الإشارات إلى النور والدفء وبالمركات والرنات المترددة من سقوط المسدس، ومن قوة ذاته وتدفق عباراته، حبكة مسرحية بلغت ذروتها، لو صنعها محام آخر لسفهه أقرانه لكنها من «مارشال هول» كانت إحدى الروائع... ثم صاح قائلاً: إني لا ألتمس البراءة، ولكنى أطلبها من بين أيديكم...

وبرئت مرجريت ف... بعد ستة أيام... كأنها الأيام الست التى خلقت فيها الدنيا.

قضية يارموث

في مساء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ كان على ضفاف النهر زوجان يتناجيان، فبصرا في ظلمه الليل على مبعده ٣٠ ياردة بزوجين آخرين يتجادبان، وسمعا السيدة تقول: الرحمة. فخليا لها المكان وانطلقا.

وفي الغداة وجدت في محل الحادث جثة سيدة في نضارة الشباب، فأطلق البوليس ذنابه في كل ناحية، وظهر أن القتل مخنوقة برباط حذاء وأنها «السيدة هود» كانت تقيم من أسبوع في مسكن السيدة «رودروم» ولم تفصح مخلقاتها عن شيء إلا أن أحد ملابسها يحمل غرة ٥٩٩ من المغسلة.

شهدت صاحبة الدار أن ساعة يدها وسلسلتها ضاعتان وأنها شهدتها يوم الجمعة تحادث رجلا وتناهى إلى سمعها من حديثها صوت قيلة...

ومضت أسابيع دون معرفة الفاعل. وقيدت القضية: «ضد مجهول لقتله مجهولة».. ثم تذكرت صاحبة الدار أن خطاباً جاء القتل من «ولوتش» فضيق البوليس نطاق حدسه، وقصد إلى مغسلة وولوتش وبدأ التوفيق يتخذ سبيله إلى تحريات، فظهر أن غرة ٥٩٩ ثوب للسيدة «بنت» وأنها كانت تعيش ثمة في أغسطس وأبرقت إلى زوجها فجاء لزيارتها ثم رحلت في ١٥ سبتمبر.

ومضى البوليس في تحرياته فعثر على الفتى «بنت»، وأنكر «بنت» أنه رأى زوجه منذ شهر يناير منذ تناوشا لعثوره عندها على رسائل رجل آخر.

كان «بنت» بائع صحف في صباه. فصبي يقال. ولما بلغ أسده لعى ماري كلارك في السابعة سررة من عمره وكانت عازفة بيان تكبيره بعامين، وكان يهوى الموسيقى، فبى ها رعه معارضه أبويه.

وفي سنة ١٩٠٠ افتتح دكان يقال واحترق الدكان وصرفت له مائتا جنيه قيمة التأمين...! وسافر الزوجان إلى جنوبي إفريقيا وقفلا في شهر مايو راجعين، ولكن متنازعين. فافترقا في يونيو، هى إلى وولوتش وهو إلى (يونيون عترت) حيث عرف فتاة أظهر لها أنه غير متزوج، وظفر منها بوعد بالزواج.

وفي ١٤ سبتمبر زار زوجته وفي اليوم التالى تركت وولوتش ولم يعرف نبؤها بعد وعرف

البوليس أن الفتى زار يارموث مع خطيبته قبل الحادث بنحو أسبوع، ونزلا منزلا آخر. وأن القاتل نزل بنفس المسكن، ولكن لم يتحقق هل كان هو نفس الزائر الأول أم لا. وشهد البعض أن شارب القاتل كان كئا لكن شارب المتهم لم يكن كذلك، ولقد طالما أعلن «بنت» في الناس أن زوجته ماتت.

ولما فتش مسكنه عثر فيه على ساعة يد وسلسلة! وعلى شارب مستعار. قال المتهم عند القبض عليه إنه كان وقت الحادث مع رجلين فكذبا وهكذا سقط أول أدلة النفي. وتابعت الأدلة فظهرت صورة للقتيل وفي يدها ساعتها، وتعرف عليه رجال في عمليات العرض قائلين إنهم رأوه يوم الحادث في «يارموث»، وشهد صاحب محل عمومي أنه جاء يومئذ مع القتل إلى محله.

وقامت الصحافة بحملة هائلة، وشاركها الجمهور، فكان البوليس ينقل بنت في شوارع «يارموث» فتحدق به مظاهرات عاصفة، واسودت وجوه الصحف بالمقالات ضده. والشعر العدائي له. ورسمته بشارب كث لأن الشهود قالوا إن القاتل كان له شارب كث. وسارت الصحف إلى نهاية الشوط فعينت محققين لاستجواب الشهود! فنشروا استجواباتهم ثم عادوا فعهدوا لأنفسهم بيهام البوليس السرى.

وكل مارشال هول في القضية لقاء خمسين جنيتها - أما محامى الدعوى العمومية فقد وكل بائنة جنيه!...

وهى أتعاب ندر أن وصل إليها محام قبل ذلك المهدي. وشعر الناس أن مارشال هول تولى قضية خاسرة، وازداد مساعدوه إيماناً بخسراتها كلها قلبوا صحائفها!...

حتى هو شاركهم في اليأس منها...

لكنه لم يكذب يلقى موكله حتى امتلأ قلبه باليقين والأمل. فياها من أنفس عظيمة حقاً أنفس المحامين، تجاهد لتخرق بإخلاصها حجب الغيب وسجف الخصومات، لتنهتدى إلى الحق، أو إلى ما تظنه الحق، وإنما لأقوى وأزكى وأروع حينما يعتقد صاحبها عقيدة لا يشاطره إياها أحد من الناس فينقلها إليهم ويفرضها عليهم؟! عندئذ يقف المتهم وحده وضده الدنيا... ولكن معه مجاميه، وهو حسبه، ويقف المحامى وحده، وضده الدنيا... ولكن معه إيمانه، وهو حسبه.

بدأ مارشال هول معركة بالهجوم العنيف الشامل على خصوم المتهم في المحكمة وخارجها بعد أن نقلت القضية من محكمة «نورفولك» إلى محكمة الجنايات الرئيسية مخافة ألا تجرى في نورفولك محاكمة عادلة.

وسلط على الصحافة التي تدخلت في القضية قبل أن يتدخل القضاء لسائناً لا يعرف الخور، فروع قوماً غير مسئولين يؤليون الرأي العام ضد المتهم. وأشعر القضاة أنهم مثله ومثل الحقيقة والعدالة مجنى عليهم. فكسب الجولة الأولى.

وانطلق يهاجم الأدلة واحداً واحداً في هذا الجو المواتي من كراهة المتطفلين والمضللين. إن هذه الأدلة لا تدل على ارتكاب موكله للجريمة وإن كانت تشير إلى أنه لا بد أن يكون هو الذي ارتكبها.

فأما الساعة والسلسلة اللتان ضبطتا عنده فليستا الساعة والسلسلة اللتان كانت تلبسها القاتل، بل هما ساعتان وهما سلسلتان. والدليل على ذلك عين المحامي الفنان. ذى الخبرة القديمة في المجوهرات. فلقد ذهب يناقش جوهرياً قديماً من أصدقائه فظفر عنده بخبير في التصوير يزكى نظريته في أن السلسلة في صورة القاتل سلسلة مجدولة، على حين أن السلسلة التي ضبطت لدى المتهم سلسلة ذات حلق من الطرز المهجورة.

واستجوب المصور فأجاب أن الصورة صورة سلسلة مجدولة. وأن السلسلة ذات الحلق لا ترسم على الوجه الذي رسمت به السلسلة بالصورة. وتلك جولة ثانية كسبها مارشال هول. إلا أن واحداً من المصورين شهد أن الرسم قد يتشابه من جراء تنفس الشخص المصور، وran الغموض على القضية، ودعا الدفاع الجوهريين والمصورين كما دعا الاتهام جوهريين ومصورين.

لكن الدليل المنتزع من هذه الواقعة أصبح في قبضة مارشال هول بعد أن كان سيقاً مصلتاً على عنق المتهم.

قالت صاحبة الدار في البوليس إن الخطاب الذي جاء السيدة «هود» من «ولوتش» كان رمادي اللون أزرق. ولكنها في الجلسة قالت إنه كان أزرق. فلما لاحظ الدفاع عليها ذلك قالت: إنى لم أقل إنه كان أزرق حالكا. فصاح في وجهها «لا تذهبي إلى هذه الصقائر معي! إن رقبة هذا الرجل تحت سيف الجلاد!!».

وراحت الشاهدة بعدئذ تؤكد أن الساعة التي في يد القاتل كانت في سلسلة ذات حلق لا سلسلة مجدولة..!! وقررت أنها كانت مخطئة فيما ذكرته قبل.

تلك إذن شاهدة الاتهام الأساسية ليست متأكدة، تقرر وتؤكد، ثم تنقض ما تقرر، أو على الأقل، تتردد!!.

وهذا شاهد يقرر أنه تحقق من المتهم إذ رآه يقتل شاره، والشارب المستعار. كالشارب المضبوط - لا ينفتل، بل إنه لينخلع إذا انفتل!

وهذه شهادات أخر، صفائر، لا تتطابق.

وهذا عود إلى الصحافة جديد! فلقد شهدت إحدى الشاهدات أنها سمعت المتهم يتهدد زوجته، فسلقها الدفاع بالسنة حداد إذ أفضت بتصریحاتها إلى الصحف فلم تلبث أن قالت إن المراسل أضاف إلى الحديث كثيرًا لم تقله!!

وتلا «مارشال هول» ما نشر في الصحيفة عنها فوافقته المحكمة على استهجان مسلكها.

واستهل في اليوم الخامس دفاعه بقوله: «إن أكبر عقبة صادفت الدفاع في هذه الدعوى هي صحافة المملكة المتحدة فقد كان عمل بعض منها ظلمًا وفضيحة... إن من آثار ذلك أن كل تحقيق لصالح المتهم أمسى خليقًا أن يدور في ظلام التكنم».

ثم فاجأ المحكمة والالاتهام بقوله: «ولسوف أقدم لكم شاهدًا جليلاً مبرأ من الغايات يقطع بأنه كان من المستحيل على المتهم أن يقتل في يوم السبت لأنه كان معه في السابعة مساء يوم السبت. وآخر قطار يقوم إلى يارموث يقوم في الخامسة».

وسمعت المحكمة الشاهد.

وفي مساء طفق يترافع ويترافع فحمل على الصحف التي اتصلت بالشهود، لإغرائهم بالشهادة أن المتهم ارتكب الجريمة... وقال «لقد كانت هذه الصحف كالغول يشرب من دماء ضحاياه». واستمر يترافع إلى الفداة، فقال إن الاحتفاظ بالساعة والسلسلة يكون عين الجنون لو كانتا للقتيل! وإن المتهم عندئذ لجدير بمستشفى المجاذيب! فإذا لم تكونا لها فإن الدليل الخطير ينهار، وأطال في هذه المسألة وجرح الشهود. وبذل في اليوم السادس مجهودًا جبارًا.

وانحط في كرسيه عقب المرافعة مهدودًا محطًا...

وحكم على موكله بالإعدام. فلم يكف عن السعى لإلغاء الحكم... لكن الله أبقى...

روبرت وود

وجدت «إميلي ديموك» صباح يوم قتيلا في فراشها بالمنزل رقم ٢٩ طريق سان بول، وشهد الشهود على فتى كان معها لم يعرف ليلئذ، كما دلوا على رجال آخرين كانوا يغشون مسكنها ولقى البوليس عندها بطاقة صغيرة عليها بعض كلمات فنشر صورتها الزنكوغرافية مناشدًا الجمهور أن يديه إلى كاتبها.

فلم تكذ الفتاة «روبي ينج» تلقى حبسها الرسام «روبرت وود» حتى قالت: لقد كشفتك - فهذا الخط خطك!.

وراح يدبران طريقه للسجاة، فدبراً ما ساء لها الهوى والهلل أن يدبراه، غير أن السرهد عصاب الفتاه، وكان وود يقول لها: إن كلمتينا سيواجهان كلام الدنيا كنها لم تقو «روبي» على مشاطرتة في مؤامرتة: وبدأ سرها يخرج إلى الدنيا بأسرها، إذ استشارت صديقا نصحتها بتبليغ البوليس فبسطت سر الفتى كله على مائدة مفتش البوليس.

ولما ألقى القبض عليه راح لادافع عن نفسه بما دبراه، وهو عند البوليس بتمامه! فجعل بنفسه دليل نفيه دليلا للإثبات عليه!

شهد شاهد أنه بصر لى شارع «سان بول» في الخامسة من صباح يوم الحادث بشخص عريض المنكبين ييرح المنزل ٢٩ شارع سان بول وأن نور الكهرياء أضاء وجهه وأنه كان يرتدى معظفا «غامق» اللون، وماده في العرض من مشيته: فهو كان يمشى ويده اليسرى في معظفه وكشفه اليمنى مدفوعة إلى الأمام.

وأيدت نسبة تلك المشية إليه الفتاة المخلصة روبي ينج، وكان الفنان الموهوب يملاً وقته في السجن وفي الجلسة يرسم كل شىء. حتى القاضى.

بل إنه ليرسم محامياً عنه جلس إلى مفتش البوليس يلعبان الورق، وروحه على المائدة لتكون كسباً لمن يكسب، في حير أن الحب أى «روبي» يهمس في أذن مفتش البوليس بأسرار الورق!...

أما الدفاع فكانت له مخارجه وتوقيقاته.

كانت ليلة الحادث مظلمة وكان صباحها معتما!

أما المصباح الذى أشار إليه الشاهد فقد خبا نوره، بحسب شهادة شركة الإنارة، قبل الميعاد الذى حدده الشاهد بربع ساعة..

وأما تدبير الدفاع الذى تورط فيه المتهم فمن المحتمل ألا يكون خشية الإدانة ولكن خشية الفضيحة!!

واستجوب الشهود استجواباً عنيفاً، فهذا شاهد الإثبات الأول يشب إلى خيال «مارشال هول» أنه قد يكون القاتل! وتسيطر الشبهة على الاستجواب، فيضطرب الشاهد أيما اضطراب، وتبلغ حماسة الدفاع قمتها في كل لفتة وحركة!... فإذا ضحك أحد النظارة صاح «مارشال» «إنى ألتمس منكم ألا تضحكوا فحياة إنسان هى الآن في الميزان».

قرر المحوذى في الجلسة أنه لقي المتهم قبل الميعاد الذى قرره في البوليس! ثم ذكر أنه لم يرو ما أسنده إليه البوليس عن المشية الخاصة. وأضاف أن الرجل الذى رآه كان عريض المنكبين، في حين أن المتهم ضامر.

أما استجواب الدفاع للفتاة العاشقة فكان على نقيض ما جرى عليه المحامون في البوليس وما توقعه الحاضرون في الجلسة. إذ كان استجواباً رقيقاً... رقيقاً، وهذا أدت أكبر الخدمات للمتهم، وكان مارشال يعتبر موقفه في استجوابها من أحسن توفيقاته.

قسا على إحدى الشهادات ذوات الخلق المجرح. فقالت له: إنك تريد أن «تجعلني» سيئة الخلق! فرشقها المحامي السريع الخاطر بقوله: معاذ الله أن «أصنع» ذلك!!

تساءل «مارشال هول» أولاً عن الباعث! فإذا لم يعرف الباعث اضطرب الفكر في تصوير الجريمة ومعرفة المجرم! ثم انتقل إلى ضمائر المحلفين في عشرين دقيقة عظيمة يحملهم مسئولية الحكم أمام الله وأمام ضمائرهم ويقول فيها يقول «قد تظنون أني قسوت على هؤلاء الشهود في الاستجواب، فمعذرة إذا بدرت القسوة مني. لقد روعني مصير روح هو الآن في الميزان. إن الشهود قد يخسرون القليل على يدي، أما المتهم فمعرض لخسارة الكثير على أيديكم! لقد كانت كفتي تنوء بهذه الأمانة الهائلة لكنني الآن قد ألقيتها على عواتقكم».

وقدم شاهداً خرج يوم الحادث في الخامسة إلا خمس دقائق من ٢٦ شارع سان بول، عريض المنكبين، فشهد أنه رأى يوم الحادث حودياً، وأنه يدفع يده وصدرة للأمام كتمرين رياضي إذ يبرح داره إلى عمله.

وشهد شاهد آخر أنه نادى الشاهد السابق يوم الحادث قبل هذا الميعاد، وأيد زملاء المتهم أقواله وأطروا شمائله، وأجمعوا أن ليس له مشية خاصة كما زعم البوليس. ولما استجوبه «مارشال هول» أظهره فنائاً، أرق بنائاً، من أن تسفك الدم يده... ولغير أسباب! وراح يبدى ويعيد في عدم وجود الباعث، وأن خوفه على سمعته من أن تلوث بمعرفته للمرأة القتل، هو الذي جره إلى تلفيق دفاع يحول دون القذف بذاته في المهالك، وتكلم عن شهادة الحوذى التي ينقضها بيان الشركة، وبيان الطبيعة وشهادات الشهود.

ثم صاح في المحلفين «لو طلب إلى واحد منكم أن يقتل حيواناً هزلاً يعالج سكرات الموت، وكانت العمدة للفصل في قتله أو حياته شهادة هذا الحوذى فهل يقبل؟!... إنني لا أتصور أنكم تقتلون هذا الفتى من أجل هذا... فلا ألتمس البراءة ولكني أطلبها... وإذا هدتكم العناية السماوية فشعرتم بأنه لا يمكن قبول ما يزعمه الاتهام فإن من واجبك لا من فضلكم، أن تقرروا أنه لم يقتل إملي ديموك».

وانسحب المحلفون ربع ساعة ليبرئوه.

وأطل المتهم على آلاف من الجماهير كانت تنتظر خارج المحكمة لتنهف بحيات محاميه.

أما «روبي ينج» فخرجت في سراويل رجل، لأن الجمهور كان في انتظارها.